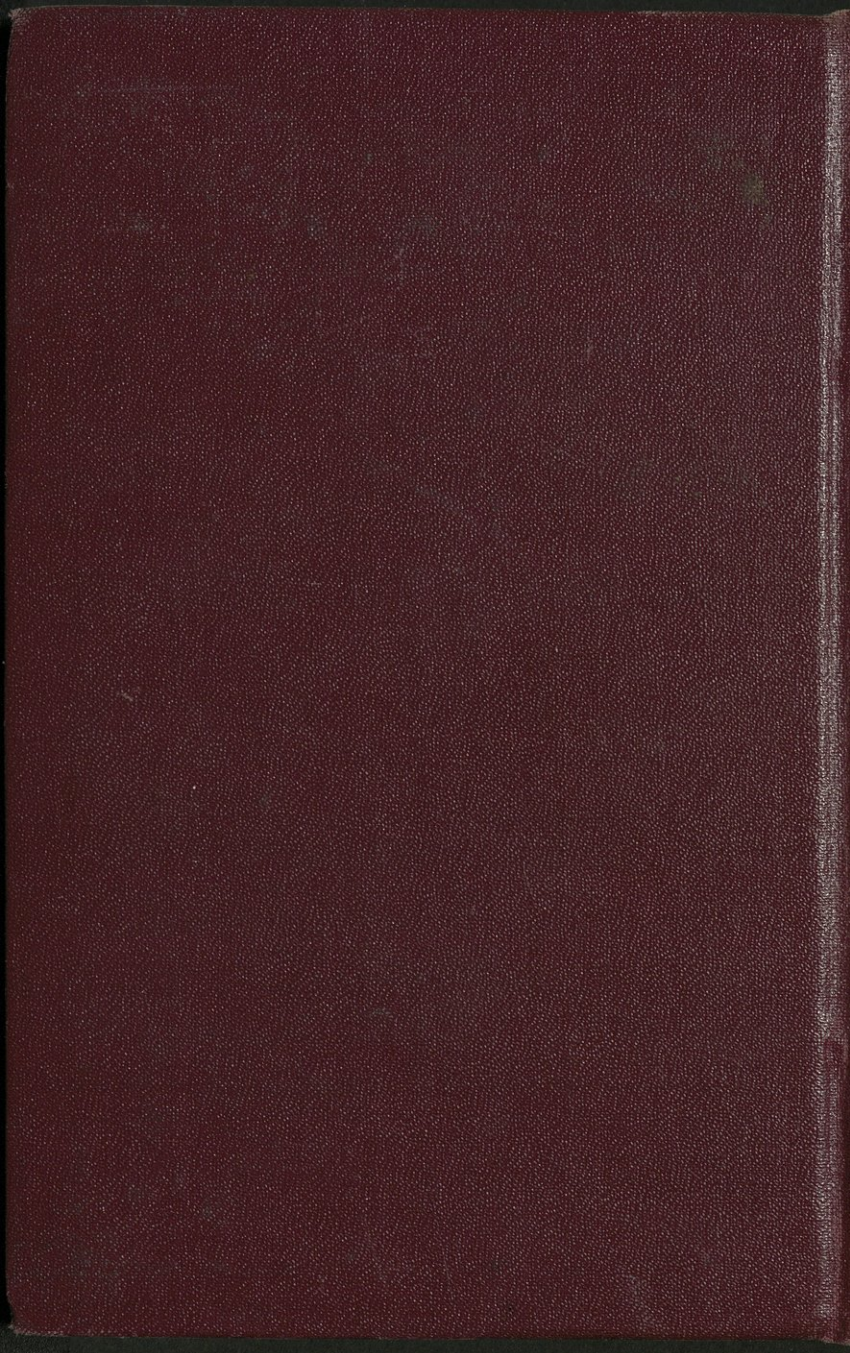




70



1870

1871

1872

1873

1874

DATE DUE

~~SEP 1977~~

~~2 OCT 1978~~

J. LIB.

~~29 APR 1980~~

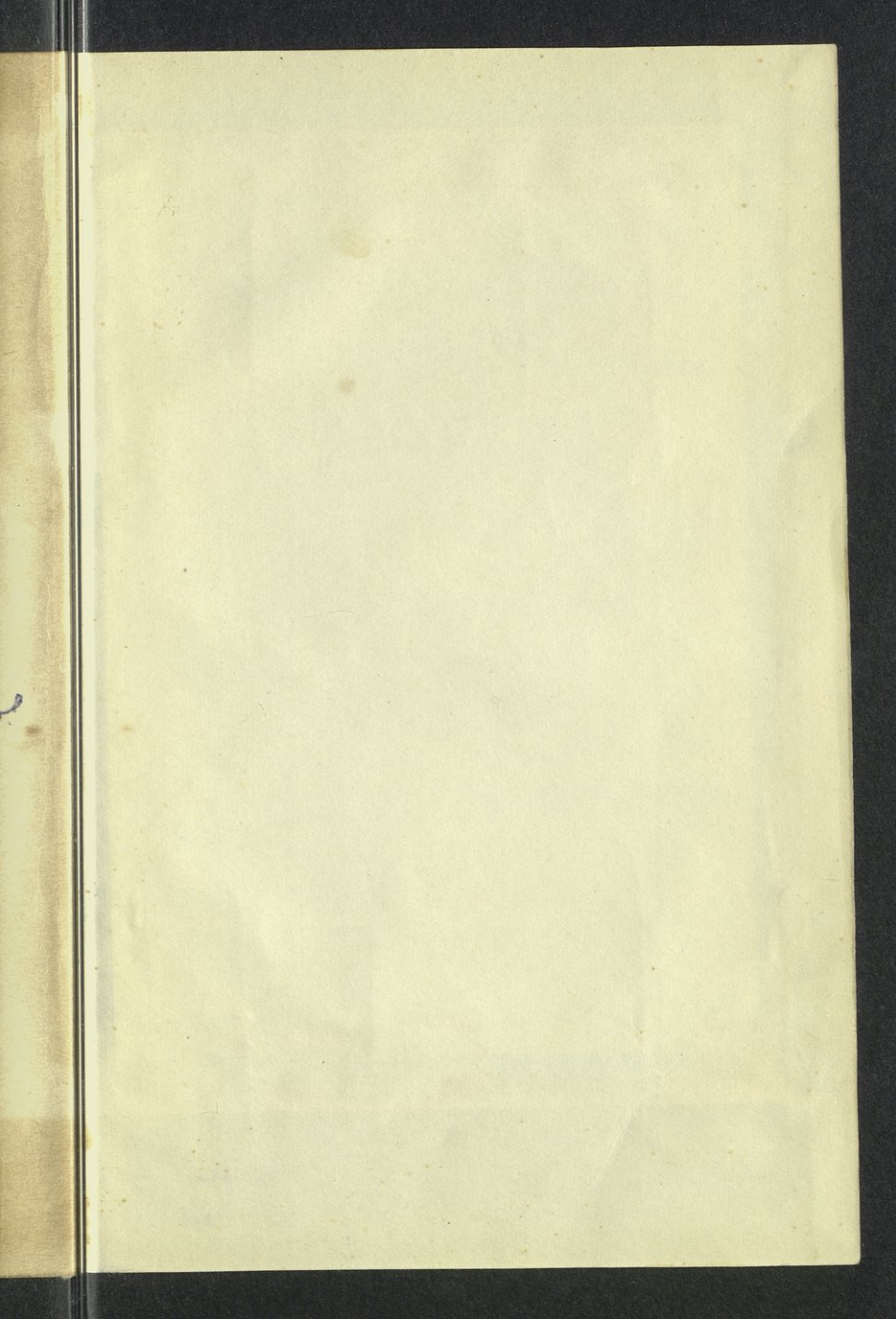
~~J. LIB.~~

~~18 JUN 1981~~

JAFET LIB.

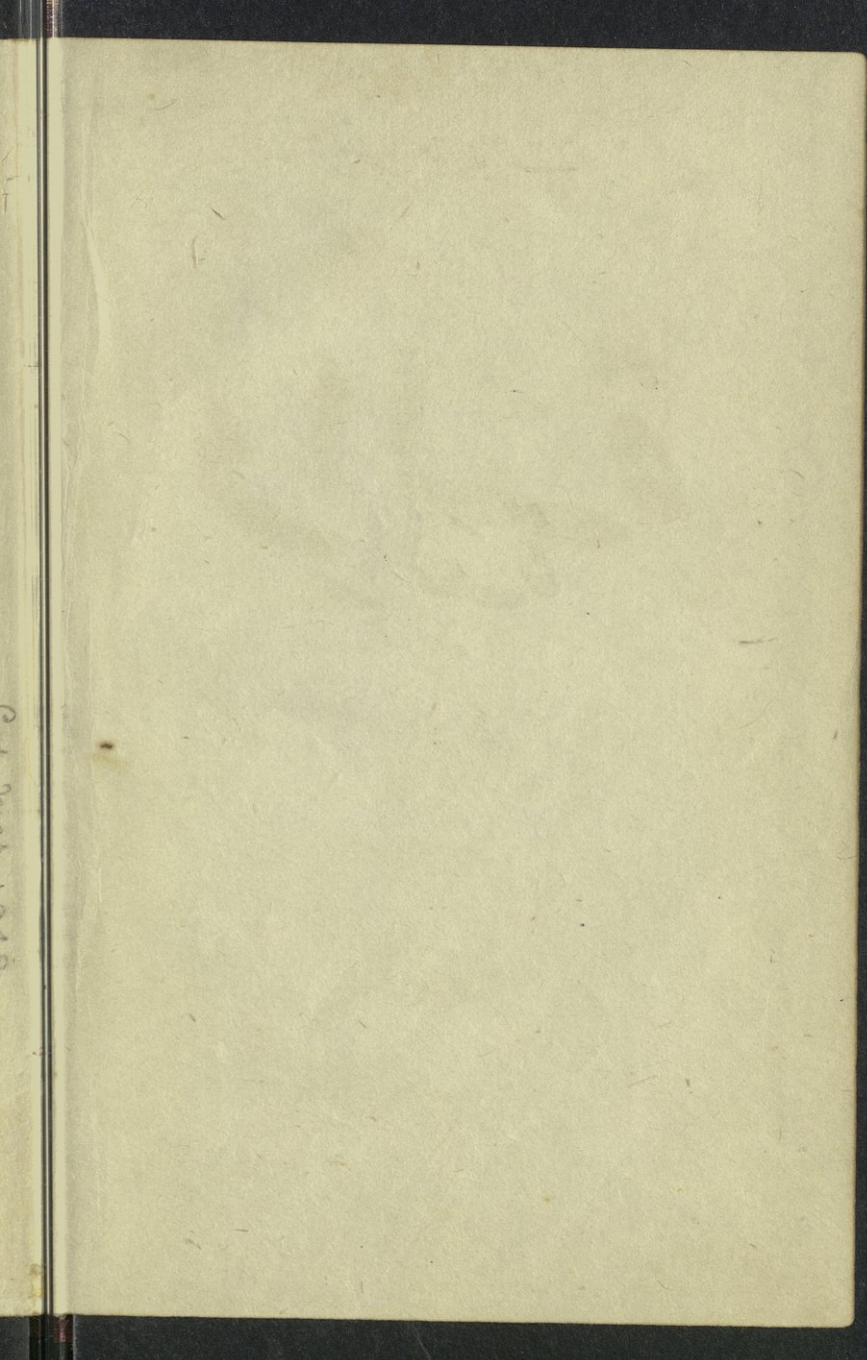
~~26 OCT 1982~~

تجلید
صالح النقر
بیروت - المزرعة



والدة

ارادہ اور دامن اللہ ، علیٰ الجرم
میرم اصحاب الارواح المسکینہ صالحت
ارادہ دامن ، شمسہم برادہ دوستو فیکہ
ای لندہ



843

M45gA

فرنسوا موريالك

والمة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد الحميد عابدين

67729



دار الكاتب المصري

Cat. Mar. 1948

الطبعة الأولى . . . فبراير ١٩٤٧

العنوان الأصلي للكتاب
بالفرنسية

FRANÇOIS MAURIAC
GENITRIX

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري ١٩٤٧

إلى أخى

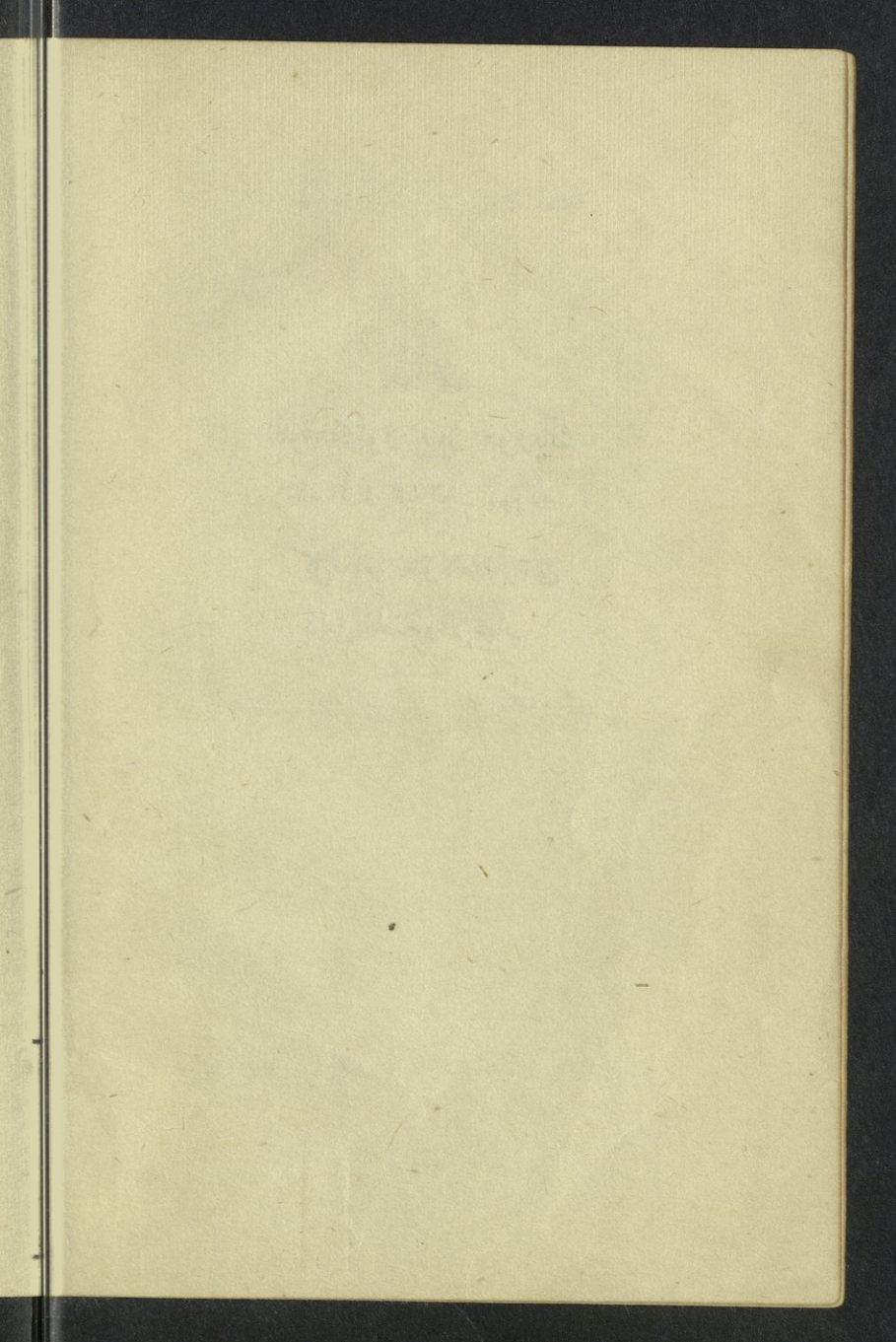
الدكتور پير موريك

الأستاذ فى كلية الطب ببوردو

أكلُ أمر هؤلاء المرضى

دليل المحبة والإعجاب

ف. م.



— إنها نائمة .

— بل هي تتصنع النوم . هيا بنا .

هكذا كان زوج ما تيلد كازيناث وحماتها يتهاامسان
حيال سريرها ، وهي تراقب ، من خلال أهدابها ، ظليهما
الضعفين المختلطين على الحائط . وسارا على أطراف
أصابعهما وأطراف أرجلهما تفرقع ، حتى أدركا الباب .
وسمعت ما تيلد خطاهما على السلم الرنان ، وسمعت صوتين :
أحدهما حاد والآخر مبجوح . وملاً هذان الصوتان ممر

الدور الأول الطويل . والآن يشقان مسرعين ساحة
الدهليز ، القارسة البرد ، التي تفصل جناح ماتيلد عن
غُرْفَتَي الأم وابنها المتلاصقتين . سمعت من بعيد إغلاق
الباب فتنفست الصعداء ارتياحاً ، وفتحت عينها . فوق
سريرها سهم من الخشب يسند ستارة من نسيج القطن
الأيض تحيط بالسرير المصنوع من خشب المغنة .
ومصباح النوم يضيء بعض الباقات الزرقاء المنقوشة على
الحائط . وعلى المائدة الصغيرة كوب من الماء ، أخضر ،
مخطط بالذهب إرتج من حركة مرور القاطرة ،
إذ كانت المحطة مجاورة . وانهت حركة المرور فأُنصت
ماتيلد إلى تهامس تلك الليلة من هذا الربيع الآفل
(كما ينصت المسافرون ، حين يتوقف سير القطار في
وسط الريف ، إلى صرير الصراصير من حقل مجهول) .
مر قطار الساعة العاشرة مساءً فارتج المنزل العتيق بأجمعه .

واهتزت أرض المنزل ، وانفتحت باب مخزن في
الدور الأعلى ، أو باب غرفة مهجورة . ثم هدر
القطار فوق الجسر الحديدي الذي يمتد على نهر
الجارون . وتسّلت ماتيلد بتتبع هدير القطار ،
ثم لم يلبث أن غلب على الهدير حفيف الأغصان .

وغلبها النعاس ثم تنبّهت ؛ فقد كان سريرها يرتجف
من جديد ، سريرها فحسب لابقية المنزل ، وليس من
حركة مرور في المحطة الهامدة . ومرت بضعة ثوان أخرى قبل
أن تدرك ماتيلد أن رعشه تنتاب جسمها فتبهز سريرها
وأن أسنانها تصطك بالرغم من أن حرارتها مرتفعة . ولم
تستطع أن تمديدتها إلى مقياس الحرارة الملتصق على وسادتها .
وانقطعت رعشتها ، ولكن ناراً لا زالت تتأجج في
حشائها تتصاعد منها كقذائف البركان ؛ فقد كانت
تحترق . وتنفخ هواء الليل في الستائر ، فلا الغرفة بأريج

الزئبق مع دخان فحم يحترق ، وتذكرت ماتيلد أول أمس ،
 حين كانت غارقة في دماء سقطها ساعة أن خافت على جسمها
 من القابلية وهي تعمل يداً لا تعرف الملل ولا توقن بالنجاح .
 — لا بد أن حرارتى فوق الأربعين . . . ومع ذلك
 فهم لا يريدون أن يسهر معى أحد . . .

وأخذت عينها الغاربتان تحدقان في السقف ، في
 هالة النور المتأرجحة ، قابضة بيدها على ثديها الصغيرين
 وهي تصيح بصوت قوى :

— مارى ! مارى دى لادوس ! مارى !

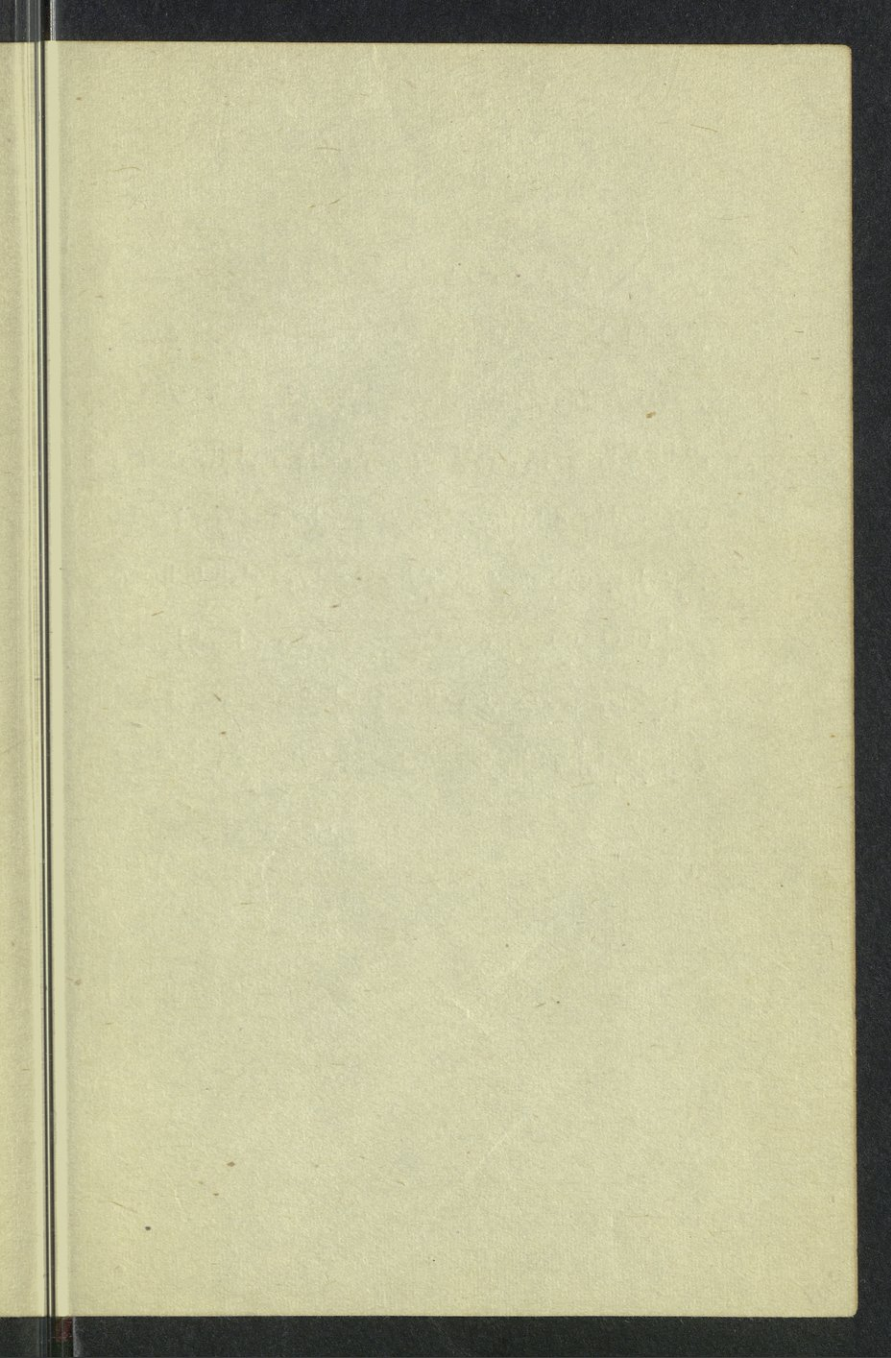
ولكن كيف تسمعها الخادمة مارى دى لادوس (نسبة
 إلى قرية لادوس التى نشأت فيها) وهى تنام فى مطمورة
 المنزل ؟ ما هذه الكتلة السوداء القريبة من النافذة كأنها
 وحش مستلق قد روى شبعاً أو قعد يتربص ؟ ولكن
 ماتيلد لم تلبث أن عرفت أنها المنصة التى أقامتها هاتما من

زمن بعيد في كل غرفة ، حتى تتمكن من أن تقفوا أثر ابنها
 في غدوه ورواحه ، حين يلف في دوران الشمال ، أو يذرع
 ممر الجنوب ، أو يعود من الباب الشرقي . ذكرت ماتيلد
 أنها رأت ، في أحد أيام خطبتها ، تلك الحماة الضخمة تقف
 على إحدى هذه المنصات منتفضة غاضبة تدبذب برجليها
 وتصيح :

— لن تملكى ولدى ! لن تستولى عليه أبداً !
 ثم عادت حرارة ماتيلد تأخذ في الهبوط . وقد
 صرفها إعيائها الشديد وانهايار جسمها عن أن تحاول
 تحريك أصبع من أصابعها ، ولو لتبعد عن جسمها المبلل
 قيصها الملتصق . وسمعت في هذه الساعة صرير الباب
 العام ، فقد كان من عادة السيدة كازيناث وابنها أن يجوسا ،
 وفي يدهما المصباح ، خلال الحديقة ، ينشدان الأمكنة الخفية
 المبنية قريباً من منزل معهما مفتاحه ، يملكه أحد

الفلاحين . ومر بخلد ماتيلد المنظر اليومي : أحدهما ينتظر الآخر ، ثم لا يكفان عن الكلام في طريقتهما إلى الباب ، وقد نقش عليه رسم للقلب . وأحست من جديد بالبرد ، فاصطكت أسنانها وارتحف سريرها وبحث بيدها عن شريط الجرس — وتلك طريقة عتيقة كانت قليلة الاستعمال — فشده وسمعت صوت احتكاك الخيط بالبطئف ، ولم تسمع له رنيناً في المنزل الخيم عليه الظلام . وعادت ماتيلد تتقد ، وهرت الكلب تحت السلم العام ثم انطلق نباحه الصاخب ؛ إذ رأى شخصاً يسير في الطريق الضيقة التي تفصل الحديقة عن المحطة . وحدثت نفسها قائلة : « حتى البارحة كنت عرضة للخوف ! » ذلك أن ماتيلد لم تنس ليالى الرعب الجنونية التي قضتها في هذا المنزل القسيح ، المرتجف دائماً ، الذي لم يكن حتى لنوافذه ضلف تقيهاكم من مرة انتفضت على فراشها صائحة : « من هنا ؟ »

ولكنها الآن لم تعد تشعر بالخوف ، كما لو أن هذه النار
المنقذة قد وقفت حائلا بينها وبين أن يصل إليها أحد .
وما طفق الكلب يهر بالرغم من انقطاع صوت الأقدام .
وسمعت ماتيلد صوت ماري دي لادوس : « ما خطبك
يا بليو ؟ » وسمعت بليو وهو يبصبص بذنبه جذلا يضرب
حجر السلم العام ، وماري دي لادوس تهدئه بلهجتها الريفية :
« بس ! بس ! » وبدأ اللهب يغادر من جديد هذا الجسم
المحترق . واستحال إعياءها الشديد هدوءاً وسكينة .
وظنت أنها تمد أطرافها المحطمة على الرمال ، أمام البحر ،
ولم تفكر في الصلاة .



وبعيداً عن هذه الغرفة ، من الجهة الأخرى من
الدهليز ، في غرفة الاستقبال الصغيرة المجاورة للمطبخ ،
كانت الأم وابنها يرقبان نشوب اللهب وفناءه في كتلة
من الخشب ، بالرغم من أنهما في ذلك الوقت كانا في شهر
يونيو . وكانت الأم قد تركت على بطنها جوربا مشغولا
إلى نصفه ، وأخذت تحك بالإبرة الطويلة رأسها حيث
يبدو قليل من حجمتها البيضاء بين خصلات شعرها
المصبوغة . وتوقف ابنها عن أن يقصّ بمقص أمه ورقات

من طبعة شعبية لحكم الفيلسوف إبيكتيت . ولأنه كان فيما مضى طالبا في مدرسة السنترال ، فقد كان يعتقد أن الكتاب الذى يشتمل على أهم الحكم التى ألقيت ، منذ أن خلق البشر ، قد يكشف له بطريقة رياضية عن سر الحياة والموت . ولذلك أصبح همه كله أن يجمع الحكم من مصادرها . وكانت تسلية القص وحدها تعينه على الوقت كما كان فى حال صباه . أما فى هذا المساء فلم يكن هناك ما يصرف الأم وابنها عن أفكارهما . وانتفض فرنان كازيناف على قدميه الطويلتين دفعة واحدة وقال :

— يبدو لى أن أحدا يدعو .

ومضى يجر نعليه إلى الباب . ولكن أمه أدركته

مسرعة :

— لن تعبر الدهليز مرة أخرى ؛ فقد سبعت ثلاث

مرات فى هذا المساء .

— إنها وحيدة .

وماذا كان يخشى من خطر ؟ ما أكثر ما يغلو في تقدير هذا العارض ! فأخذ بذراع العجوز وهو يقول : أنصتى . ولم يكن يصل إليهما إلا صوت قاطرة وصفير بلبل في الليل ، يصحبهما ارتجاج المنزل المستمر بسبب مناورات القاطرات في المحطة . وسينقطع هذا الارتجاج إلى أول قطار في الفجر . وقد تمر مع ذلك قطارات البضاعة الطويلة ، في خارج المواعيد الرسمية ، فتزلزل الأرض زلزالاً يدفع كل فرد من أسرة كازيناف إلى أن يهب من نومه مذعوراً ، فيضئ شمعته وينظر في ساعته . ثم جلسا وقالت فيلستيه ؛ لكي تصرف انتباه ابنها :

— أتذكر ؟ لقد قرأت الليلة حكمة وكنت تريد أن

تقصها ؟

وتذكر الحكمة . وكانت في مجموعة سپينوزا . وهي

فيما يظهر : « الحكمة تأمل في الحياة لا في الموت » .
— إنها جميلة ، أليس كذلك ؟

ولما كان قلبه سقيماً ، فقد أوحى إليه الخوف من
الاحتضار باختيار الحكم التي تحبب الحياة ، كما أوحى
إليه غريزته بالحكم التي كان يسيغها عقله الذي كان أقل
دربة في عالم الفكر منه في عالم الأرقام . وتمشى في الغرفة ،
وكانت جدرانها مكسوة بالورق الأخضر وقد نقشت عليه
خرائط بارزة ، وبها أريكة وكراسى مغطاة بالجلد الأسود
تعيد إلى الذهن أثاث غرف الانتظار . ويحيط بالنوافذ
أشرطة من القماش طويلة ضيقة ، ذات لون يحكى رواسب
النبيند . وكان مصباح المكتب يلقي ضوءاً على دفتر حسابات
مفتوح ، ومقلمة فيها أسنان ريش للكتابة ، ومغناطيس
وقطعة من الشمع مسودة . وبدأ ميسو تيسير مبتسماً في
بلورة كباسة للورق . وقد رأى فرنان وهو حائذ نحو أمه

على وجهها الأغبى المنتفخ تقطعية ضحك مكظوم ، فنظر إليها كأنه يسألها ، فقالت :

— حتى هذا السقط لم يكن ذكراً .

فأجاب بأنه ليس من الممكن أن تُتلام ما تيلد على ذلك ، غير أن العجوز هزت رأسها دون أن ترفع بصرها عن إبرتها قائلة : إنها عرفت كيف «تكشف هذه المدرسة الصغيرة» من أول مقابلة . وجلس فرنان من جديد قريباً من المائدة ، وقد لمع عليها المقص الملقى بين كتب الحكم المقصصة . فقال متجرباً :

— وأية امرأة ظفرت منك بالرضا ؟

هنا لك قالت السيدة العجوز في غضب مبتهج :

— وعلى كل حال لم تظفر به هذه المرأة !

فقد وصمتها بالحقاقة منذ اليوم الثاني لزوجها حين قاطعت زوجها بقولها : « لقد قصصت ذلك من قبل »

كلما سمعته يروي قصة المسابقات التي كان مغرمًا بها ،
أو يردد قصة إخفاقه الوحيد الذي أصابه في مدرسة
السنترال ، والشرك الذي نصب له في الامتحان فلم
يلتفت إليه ، أو يذكر حسن احتماله ذلك المساء حين اتخذ
زيفته وذهب في ثوب السهرة إلى الأوبرا ليشهد قصة
« الهوجينو » .

— وغير ذلك مما لا أريد قوله !

يا لها من حمقاء ! لقد كتبت على نفسها الشقاء ! فلم
يمض شهران حتى عاد الابن المحبوب إلى النوم في سرير
الطالب الصغير اللاصق بغرفة أمه . وظلت الدخيلة
كالوحيدة في الجناح الآخر من الدار . ومنذ ذلك الحين ،
أصبحت وكأنها أقل شأنًا من ماري دي لادوس . وظلت
كذلك حتى جاء اليوم الذي قلدت فيه بعض النساء اللائي
كن في عصر الإرهاب يدعين الحمل ليمتقين به المقصلة .

فالذى حدث أن الخبيثة قد كسبت فرنان مرة أخرى ،
وأصبحت مقدسة لديه . فكان يشمخ بأثفه غرورا ؛
إذ توقع أن عدد أسرة كازينايف سيزيد واحداً في الوجود .
وكان فرنان يقدس اسمه مثل سيد عظيم ، فكان هذا يكيده
فيلستيه ؛ لأنها من سلالة بيلوير الناشئة من « أعرق
السلالات في بلاد اللاند » وهي لا تريد أن تتذكر أنها في
عام ١٨٥٠ عند ما دخلت في آل كازينايف كانت جدة
زوجها « لا تزال ترتدى الملحفة » . ولم تجد ما يدعو
إلى الصراع في أثناء الأشهر الخمسة من الحمل . . . آه !
حقاً إن العجوز كانت تعمل في الخفاء على إسقاطها ؛ لأن
العدوة كانت تستطيع أن تلد ولداً حياً . . . وشكراً لله
فالقابلة قد قررت أن ماتيلد ليست حسنة التكوين ، وأنها
عُرضة « للحوادث » .

— يا عزيزى إننى أفهمك . ما كنت تهتم بالمولودة

وتحرص عليها ؛ فإن منظرها كان لا بد يسوؤك ، وكان يصيبك منها ما يصيب الوالد من ولده من المضايقات والتكاليف ، ولا سيما أن ما تيلد لا تستطيع أن تغذيها ؛ فهي لا تصلح لذلك ، فكان لا بد لها من مرضعة ، أما أنا فلقد لبثت على قدمي ثمانية أيام بعد ولادتك ولم أفطمك إلا بعد ثمانية عشر شهرا ، وفعلت ذلك أيضا مع أخيك البائس هنرى .

فقام وقبل جبين والدته ، وقال فى عظمة :

— لا غرو ، فانت المثل الكامل لمؤسسة أسرة .

وجلس من جديد ، وبدأ أنين المقص .

— أخبرنى يا فرنان ماذا كنت تصنع ببنت صغيرة ؟

وما كانت تمل من هذا الإلحاح ؛ إذ كانت تراقب انتصارها عليه :

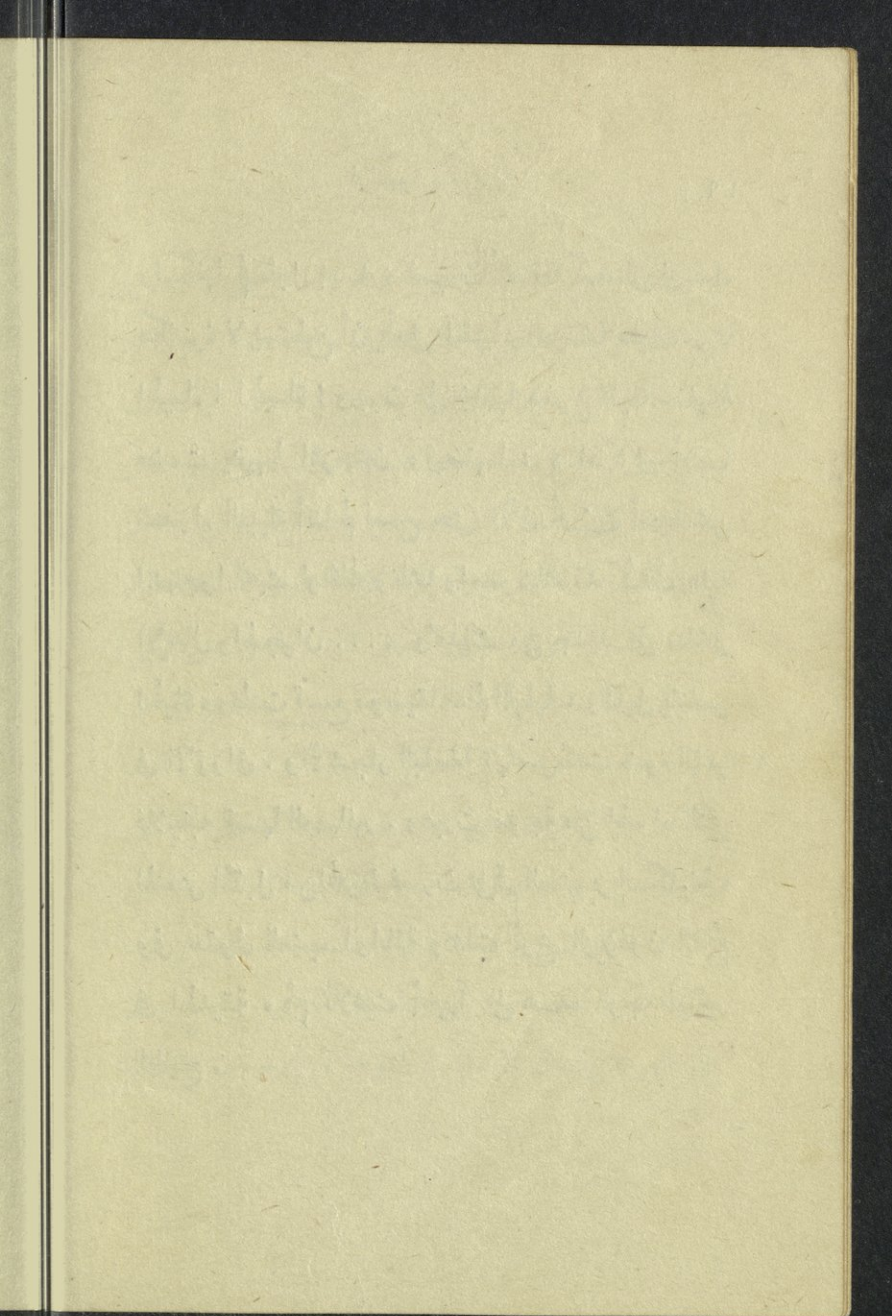
— تصوّر بنتاً صغيرة تقوم تربيتها على كراهيتنا .

وثبتت في الفضاء عينين جاحظتين كأنه يبحث فيه عن ذلك الشبح الوهمي والخيال الواهي الذي كانت أمه تخرعه . ولكن شيئاً من ذلك لم ينل من قوة خياله .

لم يُتيح له أن يرى هذا المولود الصغير الذي كانت زوجته الشابة تخلقه في مخيلتها لكي تتعزى به عن موتها وحيدة في غرفة . فقد خلقت من هذه اللقافة الدامية التي حملتها القابلة شخصاً حياً تستشعر ماتيلد عضته في ثديها . وما صورة وجهه لو ولد حياً ؟ اكتشفت المحموعة في أغوار قلبها أنه لا يشبه أى وجه عرفته — وجه متوسط الحسن ، يعلوه الهزال والضعف ، له في طرف شفقه اليسرى تلك العلامة التي كانت لدى ماتيلد . « وقد كنت سأظل جالسة في الظلام بالقرب من ممدوده حتى يمر القطار السريع الذي سيفزعه . » ولم يكن لهذا العالم الخيالي الذي حبست

فيه نفسها مع الطفلة المزعومة صلة بهذا الوجود . فليس في
إمكان من يكرهها أن يطاردها في عالمها هذا . وها هو
رأسها المثقل حيث كان الدم يندفع لم تستطع أن تتخلص
من سؤال ملح معقد سبب لها العذاب : هل يعلم الله أية
شجيرة كان مقدراً أن تنمو من هذه البذرة الميتة ؟ هل
يعلم الله ماذا كانت تؤول إليه تلك العيون المنطفئة ؟ ألا
نجد بعد الموت ملايين البشر الذين عاشوا من قبل ؟
ما الذي كان مقدراً لهذه اللقافة من اللحم في طي
الزمن . . . ؟ وهنا كل فكرها ؛ فقد ارتدت عنها لفحة
النار ، وتظاهرت الحمى بمغادرة جسمها المنتفض المغفور
بعرق لزج ، وظلت فريسة هذا الاضمحلال الذي لم يكن
إلا بداية الموت . وأحست بأن وحشاً مفترساً قد ألقى بها
جانباً . آه ! لعلها تعود من لحظة إلى أخرى ، راقبت وهي
على ظهرها إقبال الرعشة نحوها ، ورصدت علاماتها

ولكنها لم تقبل بعد ، فسبرت أعماقها كعحملق في سماء
مكفهرة لا يستطيع أن يأمل انقشاع العاصفة عنها . ربما
الحياة ! الحياة ! و جرت على خديها دموع ثقيلة سخينة
فضمت يديها اللزجتين وقبضتهما : « اذكرى أيتها
العذراء النبيلة أننا لم نسمع حتى الآن أن أحداً من
اندرجوا تحت لوائك وناشدوا معونتك قد كُتب عليه
الإهمال والهجران ... » وقذفت من جديد على ساحل
الحياة ، وعادت تسمع موسيقا العالم الليلية ، والليل يتنفس
في الأوراق . والأشجار الباسقة تتهامس تحت ضوء القمر
فلا ينبه همسها العصافير . وعبرت موجة من الهواء النقي
المنعش المقبل من المحيط فسرت على قمم الصنوبر الكثيفة ،
وفي حقول العنب الواطئة وحملت أريج الزيزفون القائم
في الحديقة ، ثم تلاشت أخيراً على هذا الوجه الصغير
الطلليج .



بلغ الإعياء منها مبلغاً كبيراً ولكنه كان عذبا لطيفا
 كان قابها وحده يدق بجنون نسبي وكانت لا تحس معه بألم .
 لا ، لا . إنها لن تموت ، ستحيا ولن تسمح للعدو أن يسيء
 إليها . ليتها تحمل مرة أخرى ! حينئذ ستضطر العدو إلى
 الاستسلام . فحسبها أن تكتم أنفاس حمايتها . أما فرنان فما
 أيسر أن تلجمه وتمسك بزمامه ! ولقد أخطأت بحماقتها حين
 أسلمت نفسها بعد الزواج إلى طبيعتها المرحية دون أن تكتم
 شيئا منها . فتمادت في السخرية التي أحبتها وقاست من
 جرائها في أيام خطبتها ، واعتقدت أنها سلاح يكسبها

المباراة التي لم تبدأ بعد . وكانت ماتيلد تعمل كمدرسة عند
آل لاشاسيني . ومن خلال شجر الحناء الذي يفصل بين
أملاك آل كازيناث وحديقة آل لاشاسيني ، فكرت
الفتاة : ما كان أسهل إشعال نار الرغبة في قلب رجل
خجول قد حبا إلى الحسنيين ، ولا سيما وقد وقعت السمكة
الكبيرة بإرادتها في الشرك المنصوب . وكان على ماتيلد
وهي ترقب ما يدور من مناقشات بين الأم وابنها — أن
هذا الرجل التقطها كما تلتقط الكرة وأنها لن تكون إلا
سلاحاً في يده يستعين به في الصراع اليومي الذي كانت
الأم تتغلب فيه حتى الآن على ابنها . أما في هذا المساء ،
فع كونها صريعة في هاوية من الإعياء ، فإنها تأمل أن
تنتصر من الآن فصاعداً على ضحكتها المسترسلة وتخدش
سخريتها التي أثارت غضب فرنان من قبل ، ذلك الصنم
الذي تعود أن يعبد . ولقد نسيت إن حياة بأسة بأكملها

قد كوتتها على هذا المنوال ، وأن قلبها قد أصبح جامداً
كالصخر ، وأنها تسلحت بالطبع الخشن ، وأقامت السخيرية
حداً بينها وبين العالم .

ماشت فتاة صغيرة في منزل منخفض من شارع
دى كوديران — وفي بوردو يطلق على مثل هذه المنازل
اسم دكان — وكانت هي ، وچان أخوها الأصغر ، يرسلان
ضحكات خفية على أبيهما — وكان مدرساً للسنة الثالثة
بمدرسة اليسيه — إذا ما انقطع عن تصحيح الواجبات ،
من جراء إصابة عينيه بالسدد . فقد كان مصباح
المكتب لا يوزع الضوء كاملاً في الغرفة ، فما كان يضيء
منه إلا كفتين نحيلتين ممسكتين بكراسات ملأى
بمخطوط الأطفال . وكان الضوء يكسب وجهه الناهل
خضرة غريبة . وعرفت ماتيلد وچان ، منذ ذلك الحين ،

أن أمهما لم تمت في بوردو كما كان مزعوماً ، ولكنها ماتت تحت سماء أخرى ، وبجانب رجل آخر . وعلى كل فقد كان ضحك البنت وأخيها على أبيهما بريئاً من كل خبث ؛ إذ لم يسمعا يوماً يشكو أو يتألم — فريسة مطاردة تلوذ بالصياح .

إنه لنصر هائل لهذا الطالب النورمالى ، المشط الذقن ، والمعتنى بها حسب عادة أهل عصره ، فى العام الذى ألقى فيه عشرة محاضرات على تلميذات مدرسة ر*** فى موضوع « مرض رينيه » . فقد فاز بفتاة من آل كوستو (وهى بنت أخى أحد مجهزى السفن ، وكان أبوها قد أفلس فى أحد اصطبلات خيول السباق) إلا أن فتى من عشيرتها أخذ يتردد عليها ، ولم يقدر الرجل على حمايتها منه وهكذا كانت طيبة قلب هذا المدرس وبالا عليه ، فبينما لم يحضر أحد من آل كوستو فى عقد قرانها ، غدوا

يتكلمون رد تحيته بعد أن خاتمه امرأته ، ثم أدى ، الإجهاد
العقلي ، القصير والمتوالى ، إلى حالة لم يستطع معها أن
يقوم بتصحيح كراسات بمفرده ؛ فكانت ماتيلد ، وهى
طالبة فى ذلك الوقت ، تقوم مقامه ، كما كانت كل صباح
تعيّنه على الصعود فى ترام « الكروابلانش » وتصحبه إلى
الشارع الواقع خلف الأيسيه حتى لا يستطيع أحد من الطلبة
أن يتعرف عليها ، وتظل واقفة ترقبه على حافة الرصيف وهو
يدلف بعيداً على ركبتين لينتبه لمتجهماً نحو حجرة الدراسة
حيث ربما كانت تنتظره ضوضاء التلاميذ . ومع كل فقد
كانت لا تزال تضحك فى هذا العهد المريع من قول ابن
خالته لاشاسنى « مبعوث العناية الإلهية » إنه
لا يتصور كيف أن المدرس لم يفكر فى الاستقالة من
تلقاء نفسه ، أو من قول السيدة لاشاسينى مراراً (وكانت
من آل كوستو) إنها لو كانت فى مركزها لاستغنت

— بلا شك — عن عرفة الاستقبال والخدمة . كذلك كانت تسخر ماتيلد من أن أباه وأبناء خالتها يفضلون جان عليها تفضيلاً ظاهراً . فقد كانوا يعجبون بوجهه الملائكى وخصلات شعره القصير ذات لون الذهب المحروق ، وأسنانه الحادة ، وضحكته المنعشة . وكان من عادة جان ، إذا حل المساء ، أن يهرب من نافذة غرفة الاستقبال . فتظل ماتيلد ساهرة حتى تفتح له مزلاج الباب العام حين يعود بعد منتصف الليل وعيناه الساذجتان الفاحشتان تحيط بهما هالة من الجهد اللذيذ ، ويدها ملوثتان وقيصه لا يزال مفتوحاً ، وعلى رقبتة المؤنثة كدم البقلة الأخيرة . فكانت تستقبل ملاك الفجر الذابل بسخرية جافة دون أن تؤنبه . وحدث في عهد ما ، أنه كان عشيق إحدى راقصات مسرح البوف يحمل إلى مصرف الزهون بعض القطع الفضية على مرأى من ماتيلد ، ولكنها

لم تفكر في أن تنبه أباه أو آل لاشاسيني . وقد اعتقدت أن كل شيء قد رجع كما كان حين ردها إلى موضعها بدولاب الأدوات الفضية نادماً على ما فعل ندماً رقيقاً ، حتى إن ماتيلد — وما كانت تتبسط إلا بقدر — قبلت وجهه الملائكي العزيز ، وقد أصبح أقل نضارة مما كان أيام ربيعته ، فتلوث بحبوب صغيرة قدرة . وعلى كل فقد تعود الملاك أن يطير في كل ليلة من ذلك الربيع المشئوم . ومع كونه ملاكاً ، فلم يكن جسمه من اللطافة بحيث يستطيع أن ينفذ من خلال الحائط حين يقدم في المساء ، فكان لزاماً على ماتيلد أن تظل ساهرة حتى تفتح له المزلاج . وقد يرفض الملاك النوم مطرق البصر محرراً في جيبه قطع الذهب ، وقد يقذف بها فجأة على المائدة قائلاً إنه سيتحصل عليه ولو لم يكن موجوداً . وتفوح منه رائحة التبغ والمسك والفراس ، ويدندن في أغنيته « لا .

لن تعرفي أبدا — يا من أستعطفك اليوم — أأحبك
أم أكرهتك ... » وهي ترجوه ألا يوقظ الأب بصوته ،
وهو يصمم على أن تذهب إلى المطبخ ؛ لتبحث له عن
فضلات الطعام ، فيبعث ذلك الدهشة في ماتيلد ، وتجد في
وجبة ما بعد منتصف الليل تسليه مرة . وفهمت أحاديث
الغلام فهما سيئاً : ورغماً عن وجود هذا الولد الفاسق
فإنها لم تجد ضيراً من أن تنصت إلى هذره حتى ساعة
الترام الأول المرتجفة .

وأخيراً انفجرت الفضيحة ، وسرطان ما أخذت
بفضل ناظر المدرسة ، وآل لاشاسيني وآل كوستو . ولم
تعرف ماتيلد شيئاً مما حدث ، إلا أن البوليس قد تدخل ،
وأن آل لاشاسيني يستحقون الشكر الجزيل ؛ لأنهم
استطاعوا أن يرحلوا جان إلى السنغال حيث يقتني آل
كوستو عدة مصارف . وظل الوالد بضعة أشهر وهو في

ذهول نسبي حتى تمنى آل شاسيني له الموت لصالحه ولصالح غيره . وتنفسوا الصعداء يوم وفاته وذكروا مرارا أنه يوم خلاص وتحرير . وكانت السيدة لاشاسيني تعلم أنها لو كانت محل ماتيلد ما كانت رقتها لتجعلها تصمم على ارتداء السواد لأن تلك العائلة هي التي ستدفع ثمنه كما جرت العادة . وقد دفعوه وأخذوا اليتيمة إلى منزلهم الكائن في لانجون حيث كانوا يمضون فصل الصيف . وأوصوا ماتيلد ألا تتعب طفلتهم السقيمة القشّة . وعرف آل لاشاسيني عن قريبتهم الفقيرة أنها « حاذقة تعرف كيف تختفى » والواقع أنها كانت تختفى عند تقديم الحلوى ، حتى في أثناء الطعام كان يقال إنها تطفى شعرها الأشقر ، وأنها تظل مطرقة لا تشخص إلى شئ ، وأنها تلتقى لفستانها لونا يشبه خشب الجدران . وإذا ذكرت الأحاديث الخاصة بالأسرة في حضورها ، لم يجترسوا من وجهها الباسم الذى يرى ويتظاهر بأنه لا يرى ويسمع ،

ويتصنع أنه لا يسمع . ضد هؤلاء القوم كانت ماتيلد
ترضى « إلى آخر مدى » طبيعتها الساخرة التى سببت
حتفها فيما بعد عند آل كازيناف ؛ إذ دخلت بيت
الزوجية وهى على هذه الطبيعة الجافة الجذبة : أرض
حزينة لا ماء فيها ! فهى التى لا تعرف عن الرجل الكريم
إلا صورة أبيها الضحكة الشخرة الذى كان أجره
فى المدرسة أقل من سائق السيارة (وكان يجمع فى علبة
التبغ أعقاب سجائره) . ولا تعرف عن الحب إلا ما جربته
فى صورة أخيها الملاك ذى الريش القذر الذى كان يهبط
فى الليل على باب الدكان العتيق . وهاهى كانت تنظر خفية
إلى آل شاسينى بقسوة وحشية وكانت تقول إنهم فى درجة
واحدة من السمنة لأنهم منصرف إلى غذائهم ، وأن
الشحم يأكل عيونهم ، وأن للزوج والزوجة ،
أو قل للأخ والأخت ، من اللحم والاشداق اللامعة

بجمرة خالدة ، صورا متماثلة ؛ فهم يشبهون — على حد
 تعبيرها — غيلان البحر ذوات الأنامل المنقبضة ، ولا
 طموح لديهم في أكثر من ابتئهم هورتنس التي
 كتبت عنها ماتيلد في كناشتها السرية : « إن حول رقبتها
 عددا كافيا من اللاكئ تخفى به معالم مرض الخنازير . »
 وما أشد احتقارها لهم حين كانوا يتكلمون على المائدة
 بطاء ، ويخللون بين الكلمة والأخرى بلفحات كبيرة !
 « إنهم لا يتابعون سير الحديث إلا بعد الازدراء ،
 مثلهم كمثل من لا يضحى بالطعام في سبيل الكلام . »
 وألفت كلمة مناسبة لوضعها على قبورهم : « أكلوا
 واستبقوا الفضلات إلى جانبهم . »

ولكن شخصين آخرين من وزراء شجر الحناء الحاجز ،
 كانا يصرفانها عن لهما مع آل لاشاسيني . ويمتد هذا
 الحاجز على طول ممر الجنوب الأثير عند فرنان كازينا ،

ويفر فيه من الرقابة الاموية . كان الابن الشيخ يتمشى ملقياً
نظرات خائفة عن يمين ويسار ، ويدخن سيجارة خلصة
كما يفعل التلميذ . فإذا حدث أن انقضت عايه فليستيه من
إحدى المنصات التي كانت تراقبه منها ، لم يكن لديه من
الوقت ما يمكنه من دفن باقي السيجارة في حوض زهر .
وفي ذات يوم رآته ماتيلد يلتهم في الخفاء شمامة كانت
حرارة أحشائه تمنعه من أكلها . وقذف ببقاياها من فوق
الحاجز فأصيبت الجاسوسة في وجهها . فلتفت ببقاياها دليل
الاثام في صحيفة ، وذهبت بها إلى آل كازيناف تخبر ماري
دي لادوس أن لصا كان يسرق في الحديقة ، ثم عادت تتربص
وراء الحاجز ، حيث وصل إليها صدى العاصفة المنفجرة .

غير أنها قد روقبت في كثير من الأحيان ، وكانت تنكر
أنها ترى كازيناف الضخم الذي يحكي في ضخامته إله

الينابيع ، وهو يفرّق فروع البشملة والبندق والحناء .
وفي الحقيقة لم تكن تتطلع من وراء هذه النظرة البلهاء
إلى آمال واسعة : فالفتاة الجارونية قد تعودت من الرجال
مثل تلك النظرة الحرجة والالتفات الفائل . إلا أن السيد
لاشاسيني كان يضايق ماتيلد ويثقل عليها : فزعم أن فرنان
كازيناث سأله بعض أسئلة خاصة بالفتاة وطبيعتها وذوقها ،
وأراد أن يعرف ما إذا كانت أمها من آل كوستو . . .
وكيف أن ماتيلد لم تذكر حينئذ المحاورات التي ضبطتها
من خلال الحاجز ، ولم تكن تدرك منها إلا الجلبة
والضجيج (فقد كانت الأم والابن يتهاديان متكاتفين
كسفينتين باليتين ، ويتعدان عن ممر الجنوب ، فلا يظهران
إلا مرة أخرى عندما ينتهيان من لغة الدوران .)

في هذا المساء خيل إلى ماتيلد أنها تسمعهما في ظلمة

الليل ، وقد اشتد تعبها فلا تستطيع أن تمد أصابعها إلى
 لحافها . انها لم تشعر بالراحة بعد ولكن هل تستطيع
 أناملها أن تبرز من هذه الهوة السحيقة من التعب ؟
 أما لهذا التحطم من نهاية ؟ إنها تعتقد أن جسمها ليس
 متحطماً بالمرض ولكنه بضربات الرجل والمرأة العجوز .
 تتصور الفتاة انهما الآن في غرفة المكتب وكم انقضت
 فيها سهرات غبراء ! « ها هي ذى تصلح قطعة من
 الخطب ، وتبعد المقاعد ، وتضع حوافظ الشرر ، وتقول
 لولدها : لم أقبلك . سأذهب لأثني أطراف اللحاف تحت
 المرتبة . »

تذكرت ماتيلد كم كان قلبها يخفق يوم أن اختفت
 وراء الحنّاء ؛ لتراقب الزويدة الصاعدة من الصوتين
 المختلطين : رأّت الأم والابن يظهران أخيراً من نهاية الممر

ويصيح فرنان بأعلى صوته متهما إياها بأنها ، في أثناء الانتخابات الأخيرة ، اضطرت أن يرفض عرض لجنة الحزب الراديكالي ، ولم تسمح له بأن يحتفظ بمنصبه مستشاراً . ووقفاً على بضعة أمتار من ماتيلد المتربصة ، وقالت له العجوز :
 — قصدت أن تتمتع بالحياة قبل كل شيء .
 أسمعني ؟ تتمتع بالحياة !

— دعيك من هذا ! فإن الطبيب دُلوك كان يؤكد لي أني في غاية من القوة إلى الأمس وأنني مبنى بالجير والرمل ، وأنني سأعيش بعدكم جميعاً . فأنت قصدت أن أعيش قريباً منك . هذه هي الحقيقة .

— أنت مبنى بالجير والرمل ؟ دُلوك أخبرك بذلك ليتملقك . كأنك لم تشك منذ أن أصابتك الحمى القرمزية وأنت في العاشرة ، بأكداس من الآلام عجز الأطباء عن تشخيصها ! أضف إلى ذلك التهابك

الرئوى المزمى فى سنة تطوعك للجيش . . . وغير ذلك
مما لا يحصى .

ولما ظهرا من جديد بعد طوفة أخرى ، عرفت الفتاة
أن موضوع النقاش قد تغير مجراه :

— إنك لا تريد أن أتزوج حتى تسيطر على
أكثر من الآن . فأنت . . . أنت التى نمتت وحدتى
والعزالى .

— أنت تتزوج أيها الماكن البائس ! أريد أن أراك
تتزوج .

— لا تتحدنى .

فهزت العجوز كتفها مبهورة الأنفاس ، وهى تروّح
بمئذيلها على وجهها الأدكن . فى ذلك اليوم عرفت ماتيلد
ما جهلته بالأمس . عرفت ما أسست الأم عليه اطمئنانها :
فقد كان يحدث كثيراً عقب المشاجرات المسائية أن يأخذ

فرنانه القطار إلى بوردو حاملاً حقيبتها الخفيفة؛ ليصل إلى هذه المرأة التي كانت السيدة كازينااف تشير إليها دائماً تحت لقب « مزاجه » .

— ألا تعلمين أن لفرنان مع الأسف « مزاجاً » في بوردو يسكن في شارع هجورى ؟

وتردف قائلة : « إنه وجهها توجيهاً طيباً ، فمن الممكن أن يطمئن المرء عليه فلن تقضى على ماله . » وعلى كل فلم يستطع مزاجه أن يستأثر بفرنان أكثر من أيام ثلاثة : ثم يعود وهو يرتعد من البرد ؛ لأنه كان ينسى ملابسه الداخلية ويأتى مثقلاً بالنوم ؛ إذ أن من عادته ألا ينام مع شخص آخر — وقد أثارت سرخطه المطاعم والنفحات . وكان يقدم أخيراً مقعداً كبير النفس ، لأن هذا النوع من المجهود كان يتعب مراكز العصب .

— سأخذ غداً قطار الساعة العاشرة صباحاً .

— على راحتك يا ولدى . مع السلامة .

تذكرت ماتيلد ما كان يعويان به من هذا التهديد وهذه الإجابة . وتذكرت أن تنفيذ القدر المحتوم قد بدأ منذ ذلك الحين ؛ فلقد عقدت النية حين سمعتهما على أن تأخذ هي أيضاً قطار العاشرة صباحاً .

لن تخدعي نفسك ، ولن تشعرى برعدة بعد الآن . كنت توهمين نفسك وهما بأنك مصابة ببرد من ريح المساء أو من هذا العرق المتصبب من أناملك ، ولقد كتبت على نفسك الشقاء . فلا شيء من الحنان قد جذبك نحو هذا الشيخ . لقد دفعتك غريزة الضباب الى البحث في كل مكان عن منفذ لحياتك المحكومة المرءوسة . وإن من أخطر الأمور أن تبصر الأشخاص بمنظار المنفعة ،

وآلا نبحث فيهم الا عن قيمة استغلالهم . كنت تستجويين كل مخلوق ، وكل حادثة ، وتحيلين فيها الطرف كأنها بطاقات تتأملين فيها سبيل النجاة . كنت تدفعين كل باب موروب — أسيرة لا تبالين بما يشرف عليه الباب من خلاء أو هاوية . ولا شك أنك ما كنت تتصورين أن كل ماصنعتة من الحيل قد أفلح في هذا الصباح حين احتججت بطبيب الأسنان ، وأخذت تذكرة الدرجة الثانية إلى بوردو وجلست حيال فرنان كازيناك . . .

الآن آمنت ما تيلد : فالعاصفة القاتلة تعود فتثنيها وتمزها وتمرق إلى أعماقها ، وتعمل على اقتلاع شجرة صغيرة نابضة بالحياة . تذكرت أنها كانت تصيبها الحمى وهي صغيرة ، فتلهو باصطكاك أسنانها . فلم لا تلهو الآن بكل جوارحها ؟ ما أشد اهتزاز السرير ! إنه ما كان يتر هذه القوة في المرة

السابقة . ومن أعماق هذه العاصفة ، أحست بهدوء الليل
إحساساً غريباً حول جسمها الأخيذ ، وأصغت في عالم حالم
منيع إلى دفيف العصافير والقمر يوقظهما ، وإلى الريح اللينة
وهي تسكاد تهز أعلى قمم الأشجار . وحيدة ! وحيدة ! أين
أبوها ، وكان يحضر ليجلس قريباً من سريرها أثناء مرضها ،
وهي طفلة ، ويعبث بشعرها الندي بيد خرقاء ! وعلى ضوء
مصباح النوم يظل يصحح الواجبات حتى تحل ساعة
الدواء . الموتى لا يعينون على أن يلحق بهم أحد من الأحياء
الذين أحبوهم . ونطقت بصوت جهير اسم أخيها جان
فربما لا يزال على قيد الحياة . وتمنت بإلحاح أن تعرف
عنه شيئاً بالرغم من أنه لم يُجب على أى خطابٍ منها . . .
فأين غرق هذا الغلام الضعيف ؟ لا قشعريرة الآن .
لقد دخلت في موقد من الحمى الفظيعة ؛ أصبحت كلوا
تحترق كصنوبرة صغيرة . ورأت ريحاً منتنةً مغمورة

بموجة من زبد البحر لا تكاد تفارقها وتكشف عن نبتها
حتى تعود إليها فتغمرها من جديد ، رأتها وهي على شاطئ
قفر تكاد تنقضّ عليه سماء من النار . وبالرغم من أن هذا
الوجه قد تحطم بصورة بشعة فقد كانت تعلم أنه وجه أخيها
جان . ولم تكن تناجي في هذيانها إلا أخاها فلم تحبب
شخصاً غيره ، ولم يحبها أحد سواه ، وبات جسدها يحترق
بالموت ، وما كان قد احترق بالحب من قبل ، وما تهيأت
ماتيلد بسقم الوجد وفناء الهوى ، لموت الأبد وفناء
الجسد ، ولكنه القدر قد شاء أن يكون هذا الجسد على
وشك الانتهاء قبل أن يعرف سره الشخصى .

بعد ذلك بساعة أشعلت الام كازيناث ثقاباً ونظرت
 في الساعة — ثم ظلت لحظة مصغية ، لا إلى الليل الذاهب
 المتجمّع ، بل إلى أنفاس ولدها المعبود من وراء الحائط .
 وبعد أن حدثت نفسها برهة تركت مخدعها وأزلت
 رجليها الرهلتين في حذاء منزلي وخرجت من غرفتها وهي
 تمسك الشمعة ، ولبست رداءها البني ونزلت السلم وسارت
 في الممشى ، ثم عبرت الدهليز المهجور ووصلت إلى أرض
 العدو ، وتسلمت بخفة ، ما استطاعت ، ودرجات السلم تفرقع
 تحت ثقلها ، ووقفت تصغي . ثم استأنفت سيرها ، وأطفاأت

سمعتها وراء الباب فلا حاجة إليها ، وأرهفت أذنيها . وبدا
 مستهل النهار تحت السلم أدكن اللون . لأنين ولا شكوى ،
 ولكن صوت غريب أشبه بصوت صنّجٍ مختنق .
 أسنان تصطك ، تصطك . وأخيرا تصاعد نحيب وأنين ...
 الله وحده يعلم ماذا كان يعبر عنه وجه غول البحر وهو
 يرهف أذنيه . إن عدوتها تحتضر على فراشها . وتراءى
 لها أن ترجع وتترك ما يجب أن يأخذ مجراه .
 وترددت العجوز ، وابتعدت ، ثم عدلت عن فكرتها
 ولقّت أكرة الباب .

— من هنا ؟

— أنا يا بنتي .

لا يكاد مصباح النوم يضيء الغرفة ، فقد غلب على نوره
 صفاء رطب يتخلل الشيش . نظرت ماتيلد إلى كابوسها
 والذي يقترب ، فصاحت وأسنانها تصطك :

— دعيني ، لست في حاجة إلى شيء . هذه هي
خفيفة .

وسألتها المعجوز هل تريد قليلا من الكينين .

— لا . لا شيء . لا أريد إلا الراحة ، لا أريد إلا أن
أدور نحو الحائط . اذهبي .

— على راحتك يا بنتي .

قالت ما عندها وأدت واجبها ، فلم يبق ما تلام
عليه . فلتتحقق الأقدار .

رفعت ماتيلد يديها وهي تعبر عن إشارة اللعنة
ووضعتها لحظة أمام عينيها حتى بعد أن هربت عدوتها .
وأدهشها لون يديها البنفسجي . وإذا بقلبها مخبول
كمصفور يحنق وأجنحته تدف بأشد ما تكون سرعة
وضغفا . وحدثت عن كذب فلم تجد إلا أظافرها الزرقاء .

وبالرغم من هذا الضيق البالغ والعذاب الأليم، فهي لا تعتقد في أبدية تلك الليلة وهي على شفا جرفٍ منها . ولما كانت ماتيلد وحيدة في هذا العالم، فإنها لم تحس بأنها مشرفة على الموت . ولو كانت أحبت لاضطرها العناق إلى التخاص من قبضة الوجود . فما كانت تريد الفراق طالما لا تعرف الألفة والمودة . لا صوت رهيب على سريرها يذكر اسم إله جبار، ويهددها بمغفرة قاسية . لا وجه يذرف الدمع عليها ويحزن على فراقها، فيتيح بذلك لها مراقبة هروبها المنحدر إلى ظل الموت خطوة خطوة . لهذا ظفرت بالميتة العذبة . . . ميتة الذين لم يحبهم أحد .

— أسمع ما ذا قال لك دُلوك ؟

هز دُلوك تحت جسمه الضخم فسحة السلم ، وبقي باب
 الغرفة التي تثوى فيها الميتة موروبا . وسمعت ماري
 دي لادوس تتنخم . عرف دُلوك بعد ثلاثين عاما في مهنة
 الطب حالات التهاب حمى النفاس : فهل لقرنان بعد ذلك
 أن يعالجه مهنته ؟ بعد السقط بثمانية وأربعين ساعة لم يكن
 هناك ما يدعو إلى السهر على المريضة . . .
 — حتى ولو جعلت من يسهر عليها ؟ فالمسكينة لم تمت

من الالتهاب ، وإنما قلبها قد خفق . ولولاه لقاومت ثلاثة أيام على الأقل . لقد صادفت قلباً جاهدت أكثر من شهر . أتذكر حين فحصت السيدة في نزلتها الرؤوية وأريتك أبهرها ؟ كان زجاج السلم الكبير يكدّر زرقه السماء ، وقالت له أمه وهو يخلص منها ذراعه :

— أسمعت يا عزيزي ماذا قال لك دلوك ؟

فنطق بعد أن سألته في المرة الثالثة ، وهو في مظهر النائم الذي يتكلم :

— كان يجب أن نجعل من يسهر عليها .

ومد يده إلى دلوك يصاحفه من غير أن ينظر إليه ، ثم مضى إلى العمود الأسود الناشئ من رؤية الجزء الموروب من الباب ، ودخل فوجد ماري دي لادوس منحنية على السرير ، وجلس بعيداً عنها قريباً من المنضدة الصغيرة ، وأدرك أن ماري قد انتهت من تضيير الشعر الذي كان

لا يزال نلبضاً بالحياة. وهزت حركة القاطرة كوبا من الماء. وسمع فرنان أمه ودلوك يرفعان صوتهما على فسحة السلم فشغل ذهنه في محاولة فهم ما يقولان: ألم ير جثة من قبل؟ نعم منذ ٣٧ عاماً رأى جثة والده في غرفة الدور الأول التي أصبحت غرفة المكتب. وكم كانت أمه هادئة! ويذكر الكلمة التي رددتها وهي تقبله: « تلك حياة جديدة نبتدى... »

دخلت أمه في يدها اللبرقيات، وراقبت ابنها الساكن. وتصاعدت من الحديقة أصوات راهبات دار الضيافة وسيدات آخر، فهل يريد فرنان أن يدخلهن؟ فأعطى إشارة بالرفض، وأخذته أمه بيدها:

— تعال بنا يا حبيبي: أنت أدري بصحتك؛ لا تبقي هنا؛ هذا يؤثر عليك.

فأقلت يده منها دون أن يلتفت رأسه. ونزلت لى

تصرف الزائرات ثم صعدت . وعادت ترجوه أن يذهب
لينال قسطاً من الراحة ، ساردة له الأسباب التي تعودت أن
تذكرها له :

— لم يعد من صالح أحد أن تتعب ، فإذا مرضت
فسوف يتفاقم أمرنا سوءاً . . .

وأخيراً تكلم وهو منصرف عنها :

— كم كانت الساعة عند ما حضرت لتصفى إلى الباب ؟
فأجابته أنها ربما كانت الساعة الرابعة .

— وأخبرت الطبيب أنك سمعت أسنانها تصطك .

— إنني استبعدت بعد روية وتفكير أن يكون هذا

الصوت ناتجاً من احتكاك الأسنان .

— فلماذا لم تعودى ؟

— قالت لى إنها غير متألّمة ولا تشعر إلا بالحر . . .

وإنها رفضت كل شئ حتى الكينين ، فأنصرفت مطمئنة جداً .

— لم تكونى مطمئنة جدا ؛ لأنك عدت فى الساعة السادسة لتتأكدى من . . .

فلم تحر جوابا وانزعجت — لا لأنها استجوبت كما يفعل القاضى ، بل لأنها اكتشفت نبرة حزن فى صوت ولدها العزيز . فكانت تعلل نفسها قائلة : « لعلها ذبذبة الضمير . . . » وتردد لنفسها : « لا ألم عنده » ولكن أى فزع يصيبه ! إن ماتيلد لم تكن تستطيع أن تطيق نظرة من العجوز على جسمها العنيد ، العنيد إلى الأبد . وكان لزاما عليها أن تنزل لكتابة عناوين البطاقات ، ولكنها لا ترضى أن تتركهما فريدين . لقد ألفت آخر سهم فى كنانتها لتحول دون وجودها وحيدين ! لقد اعترأها الخذلان مما قد أحست به ، وتذكرت صورة البابا فى كتاب ميشليه المصوّر — ذلك البابا الذى نبش قبر سلفه يريد أن يحاكمه ، ويحكم عليه ، ويهين مومياءه . . .

لم يبق إلا ليلة واحدة حتى توضع في الصندوق ، ويضم
جنتها غلاف من الرصاص ، ويحول دون نظرة فرنان إليها
تابوت ذو ثلاثة أجزاء . ثم لن يرى هذا الوجه بعد .
ولكن ، ما أشد لوعته وهو يتفرس في وجهها ! لم يسبق
له أن نظر بمثل تلك النظرة الصامتة الحزينة . ومن جديد
اقتربت منه وأخذت بيده متوسلة أمره :

— تعال !

فدفعها عنه . وابتعدت نحو الباب . وكم بدا لها هذا
الوجه البعيد النائم الهادئ منبسطة سعيداً محبوباً ! نزلت
منبهرة . وبدأت تكتب العناوين ، واستعادت وهي
بعيدة عن الميثة رباطة جأشها . لم تذهب في أفكارها
شططا ؟ أليس فرنان قد أصبح ملسكا لها دون منازع ؟
ولقد حضرت إليها ماري دي لا دوس ، وقالت إن سيدها
يرجو سيدها ألا تنتظره للغداء فابتسمت ؛ فقد كانت

مطمئنة إلى أن الراحة لن تحتفظ به وقتا طويلا . فهي تعرف أنه من هذا النوع الذي لا يعذب نفسه في سبيل جنة . ولكن لذته الكبرى كانت تعذيب أمه ، فإنها ارتكبت خطأ ، حين ادعت إبعاده بالقوة ؛ فلو كانت أظهرت عدم الاكتراث لكان ذلك حسبه منها وعلى كل فسينزل للعشاء ، وليكن ما يكون .

اضطرت طوال النهار ان تستقبل السيدات في غرفة الاستقبال المعلقة الشيش ، المحجبة المرايا ، المغطاة الكراسي ، وكن يرتدين السواد ويتهايمن فيما بينهن ، من تحت النقب ، ويعتمدحن شجاعة السيدة كازينا ، ويتمنين أن يقدم لهن حوالى الساعة الرابعة أيسر الطعام ، ولو بسكويتة صغيرة ، وذلك إما لرغبتهن في أن يتكلمن إنيهن لم يضيعن يومهن سدى ، وإما لأن الموت قد

بعث فيهن غريزة الطقوس العتيقة ، وهى الرغبة المبهمة
فى تناول الطعام الذى يكسب الروح سكينه وسلاما .
إلا أنهم اضطرن أن يغادرن المكان وهن جائعات ، ولما
ودعت فليستيه آخر سيده منهن سألت مارى دى لادوس
إذا كان سيدها قد نزل ، فأجابته أن سيدها لا يزال فى
الدور الأعلى ، وأنه طلب ، فى الساعة السابعة بيضة
مكسورة فى المرق ، وطلب أن يحضر له « الروب » والحذاء
المتزلى وزجاجة النبيذ ارمنىك . وكانت دائما تقول عنه :
إن سيدى كسائر أفراد أسرة بيلوير ، يظهر بالشر أحيانا
ولكنه فى دخيلة نفسه خير من رأيت . . . وأحست
مارى دى لادوس أنه ما كان لها أن تضيف كلمة ، بالرغم
من أنها لم تلمح ، فى الدهليز المظلم ، إلا سيدتها تصيح فيها
وهى كتلة لا تبدى حراكا :

— عودى إلى مطبخك يا وقحة .

وأعطت لها الأمر بتلك النعمة التي كان بيلوير الهرم ،
 منذ أربعين عاماً ، يستعملها إذ يصيح بماري دي لادوس ،
 حين تترك البنت الصغيرة من فرط تعبها ، تسقط من
 الكرسي : « قومي يا بليدة » ولم يكن يطيق أن يرى
 خادمة جالسة . وفي هذا العهد كانت ماري دي لادوس
 تظل تخدم واقفة حتى في وجبات أكلها ، على أصبع رجلها
 الكبرى ؛ وما كان لها حق الجلوس على الكرسي إلا في
 أثناء السهرة ، وعلى شرط أن تغزل ؛ فكل من سبقها من
 الخادومات كن يغزلن اسادتهن المفارش المصنوعة من
 الخيوط الغلاظ . والتي تكسو الآن الجسد الذي لم يعد يتألم .
 تناولت السيدة كازينافا العشاء بمفردها وهي ترهف
 السمع ، من حين لآخر ، لعل درجات السلم تفرقع تحت
 أقدام الولد المتعب الطليح . وخيل إليها أنها تسمعه ،
 أن تركت المائدة ، فأخذت تصطنع وجهاً غير مكترث :

إلا أنه كان صوت القطار السريع في الساعة الثامنة يفتح باب المخزن ، فقالت في نفسها :

— سيخذل في مساء غد .

وألقت رداءً على كتفها ونزلت إلى الحديقة . وكانت الريح الشرقية تقذف إلى الحديقة دخان المحطة ورائحة اليزفون والزنبق الغالبة على رائحة الفحم . وقبعت الطير في الشجر . وشخصت العجوز إلى نافذة غرفة ماتيلد وقد انسكب من شيشها ضوء حزين ، وقالت بصوت خافت : « غداً ستبلى يا فاجرة . » وأفزعت البلبل وهو قريب من شجرة المانوليا . وسكتت الصراير في أثناء مرورها على طول المراعى المتربة . وتحملت ابنها مرتجفاً في مستهل النهار حيال جثة البارحة ، له منظر غريب ؛ فانها تعرف أنه يهرب الموت ويخشاه .

حقاً كان منظره غريباً ! كان يحماق في ماتيلد وهو
ملتف في رداءه القاتم ، وقفاه معتمد على مسند الكرسي
وعلى المائدة الصغيرة كوب من نبيذ الأرمنياك أفرغه
ثم ملأه . وفراشات الليل يتطايرن حول شمعتين ، ويقرعن
ظليهما في السقف . نطق مرة باسم ماتيلد ولو سمعته أمه
ما كانت لتتعرف عليه ، وقام فاقرب من السرير وأبعد
ذبابة وقمت على وجهها ، وتأمل هذا الجمال الأبدى ، وردد
في نفسه : يالك من أعمى ! يالك من أعمى ! . . . ولم يدرك

أنه حقيقة يرى هذا الوجه للمرة الأولى ؛ لأن الموت قد
محا كل ذبول عليه : لم يبق شيء من تلك الملامح الجائحة
الجافة للبت البائسة التي كانت دائماً تحاسب وتحتقر وتسخر .
لم يبق شيء من هذه الضحية التي صاحت وتحدت . لم يبق
شيء من هذا الوجه المعوز المطارد . فلو أن ماتيلد كانت
سعيدة معبودة أثناء حياتها لكان لها — وهي على قيد
الحياة — هذا الوجه البادي المغفور بالسكينة والسلام .
هذا الوجه الذي تخلص من أعباء الحياة « أعمى ...
أعمى ... » أصغى فرنان وهو ثمل قليلاً من الخمر إلى
آلامه وهي تنبع من نفسه . واستقبل وهو منتش هذا
الشعور المجهول ، فاذا به نهر يتخلص من ثاج الشتاء الذي
تجاوز حده ، انتظر خمسين عاماً لكي يتألم من جراء شخص
آخر . وإن كل ما يكتشفه الناس عادة في سن شبابهم قد
توصل هو إلى معرفته في هذا المساء ! سحر قاتل يقيّده

بهذه الجثة . واقترب مرة أخرى ولمس بأصبعه هذا الخلد وظل وقتاً طويلاً بعد أن ردّ أصبعه ، محتفظاً بتأثير بارد لاحتد له .

لم يعرف ماذا انمحق من هذا الوجه — لحظة رهيبة حين بدأ يدرك أن الميتة « تتغير . . . » خرج فرنان وانحنى على السلم وكان الليل يضيئه ، وسمع القطار الذي سمعته ماتيلد بالأمس ساعة احتضارها ، وارتجف المنزل كما ارتجف في أثناء أرقها الذي شعرت فيه بخوف شديد ؛ وتذكر فرنان أنه كان وعدّها بتركيب ضلف لنوافذ الدور الأرضي ، فاستعاد ذلك في ذهنه فأحس بطمأنينة حين ذكر أنه قد أبدى لها شيئاً من اللطف في فترة حملها . وعاد إلى الغرفة . هل كان يتصور هذه الرائحة أم كانت تنبعث حقاً من هذا الشيء الذي كان ينفر منه ، ولا يطيق أن يذكره والذي بدت المفارش ملتصقة به ؟ وفتح النافذة ودفع الضلف ،

ولم يكن ممن تعودوا أن ينفروا من النوم ويتطلعوا إلى
النجوم . وإذا به يحس أنه داهم معجزة حيال صعود العوالم
الصامتة ، وأنه يجزو على اكتشاف سر . فإن القلق
الذي كان يدفعه من قبل إلى قص عبارات الحكم قد
ازداد في نفسه الآن ، فظل واقفاً بين النافذة والسرير ،
وبين هذه العوالم الصامتة ، والجسد الميت . فيا رحمة الله
على هذا الحى البائس !

ظل بجانب النافذة لا يجزو على الاقتراب من الجثة
ورشف ريح الليل المعطر فأوحت إليه رائحة العشب
والظلام المدوّى ، صورة من السعادة كان من الممكن
أن يتذوقها ، ولكنها ستظل مجهولة إلى الأبد . فانتقبضت
يده : إنه لا يرضى أن تموت ماتيلد ولو دخلت عليه أمه
لصاح بها : « لا أريد أن تموت ماتيلد ! » وقد يقول ذلك

في نعمة الطفل أيام أن كان يطلب إلى أمه وهو مريض أن
ينام الناس جميعا ، أو أن يُفك له مسامير أحد الخيول
الخشب في يوم العيد ، أو أن تقدم له قطعة من الفراولة
في شهر ديسمبر ، أو أن يتركوه يلعب ببندقية حقيقية تقتل
وتصيب . وعندما تذكر إحدى الحكم التي كان يقصها ،
وهي تتعلق بأبدية الروح ، ارتفع كتفاه : روح ماتيلدا ! كم
كان يسخر من روحها ! ما اشد حماقة من يعزى نفسه
بذلك ! إنه يطلب أن يعيدوا جسدها إليه حيا ، يريد أن
يرى السرور يشرق على وجهها وهي حية . وكم كان وجهها
خائفا حذرا ! إنه لا يستطيع أن يهرب من نفسه حتى
في اللذة . فقد فهم آخر الأمر أن الجسد يبحث بذاته عن
اللذة المدفونة ، فيكتشفها خارجة عنه ممزوجة بجسد آخر
نسعى في إسماعده . أحس فرنان بأظفاره على جبهته ، وصاح
طار ليلى قريب من المنزل ، فتقهقر فرنان وقلبه ينبض

قائلا : « لعله الطائر الخرافى الذى لا يهبط على المنازل
التي مر بها الموت ولكن على المنازل التي يقرب منها
الموت وحلّ منتصف الليل ولم يمر قطار حتى الخامسة ،
ولم تهب نسمة تهز الأوراق الخاملة ، ولم يتصاعد من
الحقول إلا تمتمة نائمة لأحلام النبات . اقترب فرنان من
الدولاب ثم ابتعد إذ رأى فى المرأة رأسه الخفيف ، كأن
فى الدولاب رائحة منتنة تنبعث من ماتيلد الراقدة على
بعد ثلاثة أمتار من هذا المكان . وتكرر هذا الصياح
الليلي وكان قريبا جدا كأنه فى الغرفة ، وقد اضطر الطائر
أن يرتقى على المدخنة أو ربما فى داخلها ! ونظر فرنان إلى
لوحة الحديد السوداء : لقد سمع فيها ديفى الأجنبية
المشؤومة ! وتراجع نحو الباب ، ونوى الرجوع إلى أمه
مستخدئا . كانت العجوز جالسة على سريرها فى الجناح
الآخر ، لا تطاوع نفسها فى الإسراع لمساعدة ابنها

الجاحد . فقد سمعت ديفيد الطائر ، وقالت في نفسها
فرحة : « إننى أعرفه ولن يتأخر بعد » .

وبينما يندفع فرنان إلى فسحة السلم ، اقترب بصيص من
الضوء لم يلبث أن أضاء السلم ، وظهرت ماري دى لادوس
بمصباحها مرتدية ملابس يوم الأحد ورأسها متلفع بملحفة
سوداء يخرج منها شحمتا أذنيها الطويلتان . وظنت أن
سيدها يريد أن ينام . وأخذ منها المصباح ونزل مسرعاً
فانطفأ في المعبر . وبلغ غرفته وخلع ملابسه وتحسس ثياب
النوم ، واستلقى على فراشه في الوقت الذي كانت أمه تطفئ
شمعتها . وتخلت عن تقبيله ؛ إذ سمعته خاف الحائط يغط
في نومه . وهناك لم تكن ماري دى لادوس معتمدة على
مسند الكرسي . بل جلست وجذعها منتصب ، ورسمت على
الحائط ظلاً غريباً : فيها الأدرد سريع الحركة ، وخرزات
سبحتها في فجوة ميدعتها تشبه حبات الذرة والشعير .

THE HISTORY OF

THE CITY OF BOSTON
FROM THE FIRST SETTLEMENT
TO THE PRESENT TIME
IN TWO VOLUMES
BY NATHANIEL BENTLEY
OF THE BOSTON BAR
AND
BY JOHN H. BENTLEY
OF THE BOSTON BAR
PUBLISHED BY
J. B. BENTLEY
1855

لبست فياستيه كازيناف نقابها ، ذات صباح متقد ،
 ونزلت إلى طريق الباب الشرقى الممتد على خط سكة حديد
 «بور دو — ست» ومشت وصدرها يتأطر إلى وراء ويداها
 على بطنها ، وذيل جلبابها يلم التراب والاقذار ، وظلت تسير
 فترة في الطريق الفسيحة ، ثم اتجهت يمينا نحو المدافن ولم
 تلج عتبة الموتى ، ولكنها قرعت بسبابتها باب الحارس
 الزاجى ، فإذا بصوت رجل عبوس ، لا يتوقع منها نفحة
 يصيح في وجهها قبل أن تسأله عن السيد كازيناف : أنه لم

يحضر مندسة أيام تقريباً . فعادت منهوكة القوة ولكنها مطمئنة إذ أحست بأنها اكتسبت شيئاً من النجاح في صراعها ضد الراحلة : ذلك أن فرنان ، في أحد أيام الأسبوع التالي لتشييع الجنازة ، ذهب إلى قبر زوجته في سقم الهذيان ودلائل الألم مما أذهل أهل البلدة جميعاً ، وكان لا يمضي عليه صباح حتى يحضر إلى زوجته حاملطاقة غشيمة ذات أفرع قصيرة كالتي يقطفها الأطفال . وها هو ذا قد أصبح متعباً طريح الفراش ! وقالت فيلستيه في نفسها : « هذه هي البداية » وإنما كانت ترضى بتعبه مضطرة لحاجتها إلى الطمأنينة . وكم كان هذا يتعبها ويقض مضجعها ! إنها امرأة واقعية قد فشلت أسلحتها المعتادة في مقاومة شبح من الأشباح . ولما لم تكن تجيد النزاع إلا على اللحم الحى فقد حيرها أسلوب الميثة : تلك السكائمة في فرنان ، التي تحتله كالحض . وتوقعت فيلستيه

بغض ابنها لها ، وسخطه عليها ، وأيقنت أن ميله المتواصل إلى إيلاهما سيزداد أضعافاً مضاعفة . لقد كان وهو طفل يضرب كرسي أمه برجليه حتى تصيح به أن يتلطف ، ولكنه الآن لا يعا كسها بشيء من ذلك ، ولكن بعدم أكثراته والتهرب العقلي منها ، فكان يفسد ألعينها ويمنع كل مناورة من جانبها . وعند ما رجعت وفتحت الباب الشرقى أحست بأنها متعبة تنصبب عرقاً تحت نير آلامها . ودخلت في رائحة غصون بالية . من شجر البقس الذي كان يحيط بآلة إصعاد الماء ، حيث تنام الاتان جريزيت وهي واقفة على مسلك من مسالك الأشجار ، ووخزت فيلستيه بمظلتها جلد الحيوان البالى فرمح ، ثم تحرك وفي هذه اللحظة خطر لها هاجس : « إنه ما كان ليذهب ، فيستعيد أحلامه في المدافن أو في الريف إذ أنه دائم الفكر في المرأة الأخرى . . . » ففي هذا الصباح ، خرج

كعادته ، كل صباح ، معوّج الكتف ، لابساً قبعة مصبوغة من قش عتيق لازمته ثلاث سنوات ، وسترة من وبر القرمل القوي الرائحة . فكان إذا حل الظهر واضطر إلى العودة إلى منزله جاس حيال والدته وعلى بعد منها . وأصبح لا يتأثر بشيء بعد الآن . فلم يعد يعارض ما يسمعه منها من محادثات كانت تثير غضبه .

أطلت الملكة العجوز ، وقد هلك عنها سلطانها ، من فوق المنصة القريبة من نافذة المكتب حيث كانت تراقب حضور ولدها . فلم تغادر ببصرها الباب الصغير وقد تركت شغل إربتها ملقى على بطنها . ونبهها القطار السريع في الساعة الحادية عشرة أن فرنان قد قربت عودته . وما كان توقعها عودة الحبيب في كل مرة ، إلا محاولة لإقناع نفسها بأنه سيضع حداً لهذا الانجذاب القاتل . ورددت الالم في نفسها : « سيعود إلى فلن يتغير المراء

بعد التحسين . . . » ولم تدر أنه لم يطرأ عليه تغيير ما ؛
 فإنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الرّمّاح الذي ربّته
 وتعهده ؛ إنه لا يريد أن تموت ماتيلد ؛ حتى الموت لم
 يعرقل أوامره الصارمة !

نزلت من المنصة ولا يزال ابنها متأخراً ، وظلت تذرّع
 الغرفة وهي تردد مائة مرة : « هيا بنا ، لنفكر : لقد
 صعدت ، وقرعت بابها وسألتها عما إذا كانت متعبة
 فأجابت بأنها ليست في حاجة إلى شيء . . . نعم ولكن
 عند عودتك إلى غرفتك بحثت عن معنى الالتهاب في
 قاموس الطب . . . » وبينما هي غارقة في تفكيرها إذ
 فوجئت بوقع أقدام فرنان في الدهليز ، وسمعه يسأل ماري
 دي لادوس : « هل أعدت المائدة ؟ » ولما كان باقيا ربيع
 ساعة على الغداء ، خرج إلى الحديقة فمحتة فيلستيه من
 ووراء ستار وهو واقف في وسط الممر . إلّام ينظر

ياترى ؟ لم تشك الأم أنه كان يتطلع إلى غرفة شارع
هجورى حيث كان ينتظره « مزاجه » يوماً من كل شهر ،
وحيث كانت المناشف المحملة تجفف على حبل ممتد في
الشباك . وكانت « مزاجه » تسميه البخيل الهرم ؛ لأنها لم
تفلح يوماً في أن تنتزع ملياً زائداً عن الثمن المحدد ،
وكذلك كانت قصة فرنان كازيناف في الحب . خطر له ،
وهو يرفع بصره إلى نوافذ غرفة ماتيلد : « وعلى كل فقد
استطاعت في خلال حملها أن تلمس منى عطفاً وجباً ،
كنت أقف في صفها ضد أمي ، غير أنها اعتقدت أنني
فعلت ذلك لأجل طفل . . . » أخذ يستعيد — دون
جدوى — كل الظروف التي أبدى فيها عطفاً نحوها .
وإنه ليدكر في سفره الأخير ، يوم أن قام إلى بوردو مع
ماتيلد : وما كان أشد انفعالها من جراء ما أنفقته في شراء
لفائف الطفل ! فقد صاح بها قائلاً : « لم تكن الأمهات في

زمنى يشترين شيئاً ما ، وإنما كن يعددن من الشرف أن يحكن كل شىء بأيديهن ! » فدلقت ماتيلد وراءه صامتة حزينة ، ودخلا فى مطعم خير مما كان يقودها إليه من قبل : الورد يزين المائدة وماتيلد تبسط منشفتها باسمعة سعيدة . ويسأل فرنان الخادم : « هل الثمن محدد ؟ » فيجيبه : « لا ياسيدى إنه حسب الطلب » فإذا به ، بعد أن يلتقى نظرة غاضبة على كثبت الطعام ، ينتفض قائماً ويذهب إلى محل الملابس ليرتدى معطفه ، وينصرفان فيمران أمام المطعم والزبائن يتهامسون عليهما والخادم يسخرون منهما ، ويتخذان طريق الرصيف ، وفرنان يتجاهل رؤيتها تبكى .

وطاد فرنان ونهضت السيدة كازيناث على ساقها الثقيلتين ، فلاحقت به فى الدهليز قائلة له :
— ما أشد إحساسك بشدة الحرأيتها العايت المسكين !

وهمت بمسح وجهه المتصبب ، عرقاً فأدار وجهه
فقالت له :

— جسمك يتصبب عرقاً ، فاذهب لتغير ملابسك .
وإلا مرضت .

فلم يجبها ، فأردفت قائلة :

— وقد أعددت لك الملابس على سريرك .

وتبعته إلى مكتبه وهي تقول له غاضبة :

— فإن مرضت ، فمن غيرى يعالجك أو يعنى بك .
وأخيراً حدجها بنظرة قاتلة :

— لم يبق إلا أن تتركينى أموت كذلك .

فأفزعتها هذه الضربة فلم تحر جواباً . واخترقا المطبخ
دون أن يكشفوا أغذية القدور — كما كان يفعلان من
قبل — ودخلا في غرفة الطعام المظلمة ذات الرائحة الفاتحة
وقالت له :

— لم تأكل .

ورددت الكلمة في أسف مرير : « لم تأكل » ومن دأب سكان المناطق الساحلية أن يفهموا هذه الكلمة على أنها نذير بالمرض والموت . ففاقد الشهية عندهم فاقد لأمن شيء في الوجود . فما عليه حينئذ إلا أن ينتظر النهاية . وهنا قالت ماري دي لا دوس :

— وسيدتي أيضاً فاقدة الشهية .

ولم يكن ذلك تصنعاً منها كما كانت تفعل من قبل ، حين كانت ماتيلد تدير المنزل . فكانت هي وابنها متفقيين على التظاهر بالتقزز من كل صنف من ألوان الطعام حتى يجبراها على التخلي عن إدارة المنزل .

ووجدت فيلستيه نفسها وحيدة في غرفة المكتب لم يالحق بها ولدها ، وحان وقت القهوة وقد تعودت أن تشربها إلى جانبه على الأريكة ذات الجلد الأسود ،

مسندة رأسها إلى كتفه يقرآن الجريدة ويتضح أن كما يصنع
الطالبة . فإذا ما فتحت زوجته الباب انفصلا فجأة وتعمدا
التظاهر بأنهما يقطعان حديثاً كان يجري بينهما . ولا تنسى
فيلستيه ما كانت تسألها العدو بنعمة مدرسة حانقة :
« هل أزعجتكم ؟ » — « لا لا لقد قلنا كل ما نريد قوله . »
هذه مناوشات كانت تستعيد لها السيدة ، فتبعث فيها
السرور والحياة . ولكن أين يختبئ المحبوب الآن ؟
ذهب ليستلقى على فراشه ؛ لأنه خائر القوى ، فلم يعد قلبه
وصدره يحتملان القيام بهذه المتاعب والانتقالات . . .
ما أشد رغبتها في أن تسرع للحاق به ! ولكن ما قيمة
ذلك ؟ فهو الآن يغلق بالمزلاج كما كان يفعل مع ماتيلد
من قبل .

نقد شعاع من الشباك الموروب ، فتألق على رف المدخنة

إطار الصورة التي تمجها فيلستيه ، تلك الصورة التي التقطت بعد شهر من الزواج يوم أن جلست الأم وولدها وكنّتها أمام مصور جوال . وحدث قبل التقاط الصورة بثانيتين أن هجر فرنان زوجته وانحاز إلى جانب أمه . وأودعت الصورة في سجل الصور . وفيها وقفت فيلستيه وابنها في مكان ظاهر ، بينما وقفت الزوجة الفتاة من الخلف مرخاة اليدين باسمعة الثغر .

هذه ذكرى سعيدة كانت تدفع السيدة كازينايف إلى التأمل فيها من حين لآخر . ولكنها اقتربت في هذه المرة فوجدت الإطار خالياً ، فأصابها الذعر وأبصرت على المائدة المقص وسلّة الورق . . . يا لله ! أحقاً تحمل السلّة ابتسامتها وبطنها وأنفها الشامخ ؟ انثنت تبصر صورتها بين الأقدار . ياله من شقى ! لقد فصل عنها صورة ماتيلد ولا شك أنه يحملها الآن على قلبه ، في حافظة نقوده ،

ولا شك أنه يجعل لذته في عزلته أن يقرب الصورة من شفتيه الحارتين . لقد تحملت العجز ما تحملت في الأسبوعين الفائتين ، أما الآن فهي قلقة فزعة من هذا الدليل الملموس ، دليل الجحود والعقوق . فحطم الغضب الجنوني في نفسها كل عقبة ، وارتجفت أصابعها القبيحة وضربت الأرض بقدميها كما فعلت يوم أن صاحت في وجه ماتيلد : « لن تمتلكي ولدي ! لن يكون لك أبداً ! » واتجهت إلى الباب ، وقد أشبه وجهها الغبي المتحجر وجه المرأة التي تنحني تحت معطفها مسدساً محشواً أو وعاء من الزاج . لعله لا يوجد في الحياة أنواع كثيرة من الحب ، ربما لا يوجد إلا نوع واحد من الحب ، فقد كانت هذه المرأة في النزاع الأخير من جراء فشلها في أن تسيطر على ابنها هذه السيطرة الروحية التي تمكنت من نفسها فأصبحت أشد عنفاً من الرغبة التي تجعل جسمين شابيين يمازجان في تنفائیان .

دفعت الأم ضلف النافذة وهى تتمزق من الغيظ .
كانت شمس الظهيرة ثقيلة على الحديقة اليابسة ، ورمال
الممرات تتخلل الأعشاب المتربة . وزفر القطار فى بدء
قيامه فذكر بصدر مهموم . وأدركت العجوز السلم وهى
تتولى غضباً ، وأخذت أنفاسها تضعف شيئاً فشيئاً ، حتى
بلغت غرفة الابن العقوق فوجدتها خالية ، ووجدت فى
كل مكان من الغرفة زجاجات تنبعث منها رائحة البول ،
وشعرت بالخوف عند ما رأت لون خديها فى المرآة
بنفسجياً . فأين تجد هذا الغادر إلا فى غرفة العدو ؟
ونزلت ، وركبتها السقيمتان تنثنيان تحت ثقلها ،
وسارت فى الممشى وعبرت الدهليز المظلم ، ولم يبق إلا الممشى
واحداً ، ثم السلم المؤدى إلى غرفة الميثة القاهرة . ظلت
الأم خائرة القوى بضع ثوان ، ووقفت جامدة حيال
الباب ، كما فعلت ليلة الاحتضار وأصغت ، ولكن الله لم

يدر حينئذ ما حدث في تلك الليلة على وجه العجوز المصفي
فلم يعبر وجهها عن الدهشة والأمل ثم لم يتهلل بفرح
جنوني ، وأرهفت السمع فإذا غطيظ خفيف ، يتبعه شيء
يشبه الزحير أو الصوت المخنوق ؛ وعرفت هذا الصوت
جيداً ، فكم كان موسيقى لياليها الحلوة التي كانت تسهر
عليها وتلتذ سماعها ، من وراء الحائط ، وتستدل بها على
وجود معبودها . فكانت حينئذ تسهر مضيقاً إلى هذا
النفس حتى أنه لم يكن لديها ما هو ألد من هذا الأرق .
أما اليوم فقد سرقت الميثة منها نومة ولدها العزيز ، وهنا ،
عادت موجة من الغضب تثيرها ، وأظلمت الدنيا في
عينها ، واندفعت تفتح باب الغرفة .

واضطرت فيلستيه أن تغمض ، عينها فقد كانت
النافذتان العريضتان مفتوحتين فتركتهما لهيب شهر يونيو
الغائل يتسرب إلى الغرفة ، وفاحت رائحة الزنبق النابت

في قوصرتين على المائدة الصغيرة في الغرفة ، كما لو كانت الغرفة مغلقة . وبين هاتين القوصرتين صورة ماتيلد مقبوضة في عناية ، ومحاطة بإطار مصدّف أوسع منها . ووضع أمام الإطار ، بنظام ، ما كان قدّمه للخطوبة : فص صغير من الماس وخاتم وقفاز أبيض بالي . وبأسفل هذه البقايا جلس فرنان خائر القوى على الكرسي ، ورأسه يترنح ، وقد أخذه النوم من عنقه . وما زال زنبور يتخبط بالسقف والمرأة حتى اكتشف نافذة مفتوحة فتلاشى طنينه في حريق السماء .

ودب حذاء فيلستيه على أرض الغرفة ، وغيّر فرنان وضعه ، ووقفت ، ثم خطت خطوة نحو المائدة الصغيرة فرسمت وهي تمد يديها حركة پوليوكت محطم الأصنام ؛ فقد ارادت أن تبصق على الصورة ، وتمزقها وتطأها بقدميها

ولكنها لم تجرؤ . وسقط رأس فرنان على ذراعه الملقى
على المائدة ، فلم تر أمه من وجهه إلا كرة كبيرة مرشوقة
بأشواك من الشعر الرمادى . وأحست بالبرد على وجهها
المبلل بالعرق ، وزاغ بصرها وطن الدم فى أذنيها ، فكأنها
تسمع دوى البحر من خلال صدفة كبيرة . وأرادت أن
تتكلم فلم يطاوعها لسانها ، وما كانت تدري هل ما تسمعه
ناشئ عن صوت صراصير أو طنين ذباب أو غليان شريانها .
وإذا بيد خفية تدفعها إلى السرير وتلقى ، بها على الفراش
الذى كانت ماتيلد تتألم عليه حتى قضيت نحبها : واستلقت
كالوحش ، وانتظرت ، ثم حملت مشدوهة : فقد مر بها الطائر
المشئوم من بُعد ، فزفرت زفرة ، وابنها يغط فى نومه ،
فيحدث صوتاً من حلق مزدحم ، والخطر الداهم يدعها مرتجفة
تتصبب عرقاً . وألقت إلى الهيكل المقدس الذى يتبتل فيه
هذا الشيخ الفانى نظرة قل فيها الحقد وعظمت الرهبة .

لما حلت وجبة المساء لم يلمح فرنان أثراً لجو الخوصومة العادى وأدهشه مظهر أمه : فإنه تعود أن يراها شاحخة الصدر ، منصوبة القامة ، فى مظهر الجلال والعظمة ، فإذا بها الآن ذابلة كسيرة ، ذات خدين مسترخيين رماديين ، ومع ذلك فلم يحس بشفقة عليها ، بل شعر بملل بسبب الضربة التى كان يعد نفسه لتصويبها إليها . وكان يخشى أن تتلقى هذه الضربة بالصياح والعويل ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد تلقتها ببرود لم يكن يتوقعه .

فما رآته في ذلك اليوم قد نهبها إلى هذه الضربة ، فلم تعباً
بحضور ماري دى لادوس ، تطلب منها ملاءتين لإعداد
سرير سيدها في غرفة السيدة المسكينة . فأعطت مفتاح
الصيوان للخدمة وأخذت شمعتها ، وقدر فرنان أنها
ستتحدها في صمت . لا فلم تعد تتشدد في شيء ، فلم
تأخذها دهشة ما ، ولم تحرك ساكناً حين رآته يمر في
طريقه إلى غرفة العدو بأمتهته وأسلحته ؛ ذلك أنها
أيقنت بالخيانة في قلب ابنها .

وما إن انسحبت إلى غرفتها حتى وجدت سكوتاً غير
مألوف قد بث فيها الرعب ، فخيل إليها أنها تسمع ارتجاف
المنزل للمرة الأولى ، وتذكرت أن زوجها قد بناه أمام
محطة سكة الحديد بحكم طبيعة عمله في تجارة الأخشاب
المستوردة من الشمال ومن المدينة . فلما أصبحت أرملة ،
كان غطيظ ابنها في نومه سلوتهما في الحياة وحائلا بينهما وبين

أخطار الظلام . وما كان وقع الخطوات الخافتة ، ولا هدير
 الجسر الحديدي فوق النهر ، ولا الأنين الممدوى حين يعتدل
 الليل والنهار ، ولا شدو البلبل بين أشجار السوسن —
 بالذى يفوق هذه الأنفاس الراقدة . وقد اكتسب قرنان ،
 مما أمضاه من ساعات معدودة ، قريباً من ماتيلد ، روحاً
 جديدة وأضاف قيمة إلى وجوده . والآن في هذا المساء
 أحست بأنها غريبة بين جدران منزلها التى تضمها منذ
 حوالى خمسين عاماً ! ومر قطار قبل قطار آخر الليل فهز
 زجاج النوافذ ، ثم عبرت قاطرات البضاعة متتابعة
 لا تحدث صغيراً ، وإنما يختلط هديرها بأحلام النائمين ،
 أما المرأة العجوز فقد ظلت تقاسى النوم فى المضيق
 الذى بين السرير والحائط ، ملصقة شفتيها بالجدار ،
 ومن ورائه ولدها مستلقياً على فراشه ، لم يغط فى نومه
 بعد . « استديرى على الجانب الآخر وأغمضى عينيك ،

واجعلى الفضاء بين جنبيك . . . » وجأة انتفضت قائلة :
— إن شخصاً يمشى فى الحديقة .

لا أحد . . . فقد هزت الريح أوراق الشجر هزاً رقيقاً
فأوهم أنه صوت أقدام ، لهذا أشعلت فيلستيه ثقاباً وعادت
لا تسمع شيئاً ، فأطفأته ، ولكنها تصورت أن المنزل
الفسيح لا يحويه شيء فى وسط الظلام الدامس ؛ فشرفاته
خالية من الشيش . وخيل إليها أن وجهاً ما كراً ينظر من
زجاج النافذة لاصقاً به ، وأن يداً تشقه بماسة صامته .
وكيف تنال موافقة فرنان على وضع الشيش ، وهى التى
رفضت أن يسمح بوضعه عناداً فى ماتيلد ؟ خير سبيل أن
تذكره بأمنية الراحلة ، فذلك أدعى إلى قضاء الحاجة
وتحقيقها وأحست فيلستيه أن ما كانت تحس به من ضيق
فى هذه الليلة إنما هو لون من ألوان العذاب التى كانت
تتجرعها الفتاة فى كل يوم ، فيا لها من صدفة واتفاق !

وهزت العجوز كتفها ، وزجرت نفسها ، واستعادت
حوادث الخادومات منذ القدم من أعماق ذاكرتها ، وطفعت
على طفولتها الخائفة . لا ! لا ! فإن الموتى لا ينتقمون .
وها هي ذى ماتيلد تزداد غفنا في كل لحظة في مقبرتها
الثالثة على اليسار ، المجاورة للجائط الخلفي ، إلا أن فيلستيه
كانت تسائل شبح الموت بعينها كأنها قد اهتدت أخيراً
إلى عالم مجهول زاخر بالأرواح بعيد عن المظاهر . وعادتها
واقعتها فاغتصبت ضحكة ، فما هي مؤمنة إلا بما تلمسه :
فقد كانت ولادتها في زمن لم تتصل فيه بلاد اللاند بباقي
العالم إلا بطرق رملية . وحدث أن طرد عصر الإرهاب
القساوسة من هذه البلاد ، وتناولت أم فيلستيه قربانها
المقدس الأول يوم زواجها . وكان أطفال هذه البلاد ،
حتى مستهل القرن الأخير ، لا يعبدون إلا الشمس القاسية ،
ولا يعرفون إلا القوة الخارقة لنار الإله « پنياداس » —

ذلك الإله السريع الذى يعدو فلا يدركه أحد تاركا خلفه
عدداً عظيماً من المشاغل .

تأخرت قليلاً فى نومها إذ أنها لم تظفر بالنوم إلا عند
الفجر . وزلت فرأت على الصندوق الخشبى عصا فرنان
وقبعته ، فلماذا لم يخرج ؟ أكدت لها ماري دى لادوس أنه
لا يزال نائماً . وشخصت السيدة إلى النوافذ فرأتها مغلقة ،
فثبتت بصرها عليها وهى متألمة كما لو كانت الراحلة حية تضم
فرنان بين ذراعيها . وهمست قائلة : « أنا مجنونة » ، فما كانت
الأم تحس بمثل هذا الشعور يوم أن كانت ماتيلا على قيد
الحياة . ورددت فى نفسها : « أنت تعرفين جيداً أنها
ليست هنا ... » هى ليست هنا ولكن ذلك لم يمكنها من
أن تستأثر فى فراشها بالشخص الذى هرب منها وهى على
قيد الحياة . ولم تذكر فيلاستيه أنها تأملت يوماً ما بمثل هذه

الحالة المريعة اليأسية ، حتى في اليوم التالي من الزواج ، كانت تحس بأنها مؤمنة بانتصارها . فقد حدث بعد أسبوع من زواجهما وكانا يتنزهان في بيارتس أن أرسل إليها خطاباً أثلج صدرها وملاًها غبطة حتى إنها أعادت قراءته مرات كثيرة ، خفظت منه أجمل عباراته : « ... أنت على حق ؛ فالأم وحدها هي التي تستطيع أن تفهم أى نوع من الرجال أنا ، وكل النساء الآخر غريبات عن نفسي ، يعتقدن أنهن يحببننا ولا يفكرن إلا في أنفسهن ، فلذاتهن أولاً ثم سلامتنا . ويجدن من الصواب أن تنفق بغير حساب في سبيل أحلام سخيصة . وأكثرهن إلحاحاً هن اللاتي كن يمتن جوعاً قبل الزواج . هل تذكرين هذا الفندق القريب من محطة سكة حديد بايون الذي لم يكن نفماً جداً ولكنه صادف هوى في نفوسنا ؟ لم ترض ماتيلد أن تقيم فيه ؛ لأنها ادّعت أنها رأت فيه بقعة

ميتة ، وأن الدلو كان كريحه الرائحة ، فاضطرت إلى الإقامة
في إحدى الفنادق البغيضة لدى ، فهناك جم غفير من
الخدم لا يحبون أن يقضوا خدمة دون نفحة ، ويهزون
أكتافهم مهما أخذوا من النفحات ولو كان عشرين سنتيا !
وحسبتي ما تيلد بخيلا . وهي امرأة لا تتحدث إلا عن
نفسها فلا تعنى بأى شيء يتعلق بى ، وأنا الذى كنت أشتكى
من العناية الفائقة التى كنت ترمقينى بها ! أوكد لك أنها
تسخر من حالتى الصحية ، ولم يكن لها يد فى صحتى
وعدم إصابتي بمرض ، فهى تحدث فى عربات القطار تيارات
هواء قاتلة ، وهى تصحو فى الليل أثناء نومي لتفتح النافذة .
ولا داعى للقول إن آلام كتنى قد تنبتهت . إنها دائبة على
السخرية ، تنتقد عادات أسرتنا وتزعم أن عدم الاغتسال
فى المساء شيء قذر — وهى لا تدرى أن الاغتسال لا يوازى
تعبه ، ما دام سيعاد فى الصباح التالى . هذا قليل من

كثير أتحمله ولا أستطيع أن أعترف لك به . لا تخافى شيئاً
يا أماء ، فابنك يؤدي واجبه حتى النهاية . »
وفي صباح يوم قائلظ ، يحكى أيام هذا الصيف ،
وصل هذا الخطاب ليغمر الأم ، هذه الذئبة الهرمة ،
بالقلق والسعادة . يا لها من ذكرى جميلة ، ذكرى
الأسابيع التالية لذلك ! لاحظت ألف إشارة تدل على
انفصال يزيد يوماً بعد يوم . وحدث أن قال فرنان
لأمه ، في اليوم التالي لليلة لا تزال أسرارها غامضة ،
وهو صاحب اللون : « ستنصبين سريري في غرفتي
القديمة . . . » كانت تتوقع هذه الفرحة وإن لم
تكن بهذه السرعة . وأصبحت ترى نفسها في غرفة
مُهوَّاة جالسةً على رأس سرير طفل ضيق . وقد
فرشت ماري دي لادوس عليه الملائات ذات رائحة
النعناع والماء الجاري . أما اليوم . . . فوا أسفاه ! لقد

بددت الشمس الضباب ، وخلت الحديقة من العصافير اللهم
إلا من صرصور . وانصفت ضلفة النافذة وكانت تغلقها
مارى دى لادوس . وهبت ريح الجنوب الملتبهة وهى
تحمل رائحة الصنوبر المحرق ، ولم يبق مناص من أن تحمر
السماء وتكفهر بالدخان فى منطقة اللاند . وباتت
الأرض المعذبة ، من لحظة إلى أخرى ، تزداد عطشاً ،
والكلب پليو يفحص بقدميه وأنفه ليحفر حفرة يبتد
فيها . وسمعت فيلستيه طنين دمها فى أذنيها كما حدث
لها فى اليوم السابق ، وتوالت ضرباته ، وهى ساكنة ،
فربما كانت حركة منها إشارة إلى الموت . وهممت كالمنجونة
بكلمات ، فرفع پليو أذنيه وظن أنها تحادثه وتصورت أن
جسد ابنها ملقى على الفراش الذى كانت عليه جثة ماتيلد
فانتفضت فزعة ، ودلفت إلى السلم الملتهب محاطة برائحة زهرة
الغرائيون وأصوات الضباب العاوية . فلما وصلت إلى

الدرجة الأولى من السلم دُفعت الشرفة ، وظهر فرنان
كازيناف يقول لها :

— المائدة أعدت يا أماء .

كان لا يزال على قيد الحياة واقفاً تحت الشمس المحرقة
تخفى وجهه قبعته المنخفضة . فشعرت العجوز ، على ثقلها ،
كم هي خفيفة وهي تصعد إلى المحبوب الجامد الذي
لا يتحرك ! إنها فرحة قصيرة : ونظرت إليه وهو جد
قريب منها فرفع قبعته لكي يحجبها ، فكتمت صيحة حين
رأت ما أصاب وجهه من تلف . بأية حالة تجذبه إليها
الراحلة ! شفتاه أشد بياضاً مما لو كان شرب خلا . بصره
مغمم بالدم كعيني كلب مُسنّ . . . ونظر هو أيضاً إلى
والدته وهو جالس على المائدة . ولا شك أن كلا منهما فزع
من الآخر حين جلسا يتناولان وجبة الغداء وجها
لوجه ، وظلت لا تغادره نظراتها بينما ثاب هو إلى حالته

ينشد رؤيةً ماثلة في دخيلة نفسه لا منصرف له عنها .
وصاحت ماري دي لادوس : لقد اشتعلت النار في جهة
لانديراس ولكن ناقوس الكنيسة لم يدق لأنها حدثت
في مكان ناءٍ عن القرية ، — وما كان أى ناقوس بقادر على
أن ينزع فرنان من ذكرى ليلته الأولى في الغرفة التي
ماتت فيها ماتيلد .

قضى في بادئ الأمر فترة من الزمن أحس فيها بحلاوة
الراحة ، تحت أجنحة الستائر البيضاء المبهمة المسندة بسهم
من الخشب . كانت النوافذ مفتوحة ، والليل يتنفس فيها
كما يتنفس الكائن الحي . لا شيء يذكر الآن بالسهر
حول الميتة ولا بهذا الطائر الخرافي . ولكنه أصبح يحس
وهو مستلق على ظهره ، وبصره مغلق ، ويداه قابضتان
على الملاءة ، ورجلاه ممتدتان كما كانت ماتيلد في حالة
موتها ، أصبح يحس بأنه يتدفق بين لجنتين نحو هاوية من

الراحة لا نهاية لها . فهي مائلة حياله ، لا في الغرفة ولكن
 في قرارة نفسه ، ممتزجة بلحمه ، لحمه اليقظ الذي يذكره
 بليالى العرس . وتنبه تفكيره شيئاً فشيئاً وانحصر في لحظة
 من الزمن شعر فيها بجسم ما تيلد الخائف لاصقا به .
 وبث مارآه في نفسه الشفقة والسخرية معاً ، فهز رأسه
 وتهد بصوت جهير . إنه ، كسائر أسرته ، بل كأكثر
 الرجال ، لا بد أن يموت دون أن يعرف ما هو الحب .
 ولقد لعب القدر هذه اللعبة الغريبة بأن أيقظ من هذا
 الرجل الهرم مسارب دفينه في أعماق سحيقة ! وها هو
ذا الينبوع الملىء بالطين يفسح فيه طريقاً بطيئاً . لم يكن
 يعرف ما هو الحب فقد عاش آباؤه عشاقا غيورين لأشجار
 الصنوبر والكروم . وأراد أبوه ، نوما كازيناف ، أن
 توضع على قبره قطعة من الطين الخصب لأرض كان يؤثرها
 على سائر أملاكه . وعند ما فكر في أن يخطب امرأة ،

سأل صديقاً له كيف يستغلها. وكان الزواج يضمن لكل هؤلاء الغابرين استمرار الملكية فضلاً عن تنمية الثروة. وقاوموا الموت الذى لا مفر منه بفكرة تخليد الأسرة ، فكان الولد الواحد منهم يكفى دائماً لبقاء خيط دقيق من الحياة ، يحمل التركة التى تزيد شيئاً فشيئاً حتى نهاية الوجود بما يفيد الزوج من أموال الزواج والوراثة. ولم تفلح أية عاطفة فى أية لحظة من حياة هذه الأسرة فى أن تصرفهم عن هذا المجرى الهائل الجارف . وكان النساء جميعاً ، سواء أكن من آل پيلوير أم من آل كازيناف من اللاتى يهمن للزوج : « أسرع » . ومع ذلك فكان لابد من أن تظهر يوماً ما على حلقة من السلسلة الحية نقطة من الصداً ظاهرة تعمل على قرصها ، وتقطع بين ماضيهما وحاضرها . فويل لمن يخلف بعد ! يا لها من قلوب شقية لم تولد بعد ! ماذا ترون منى أيها الأطفال ! فما أقسى

ما أظهره فرنان لأمه من خصومة صامتة ! ومع ذلك فإنها
أمه التي ورث عنها شعلة الحياة ونبراس الوجود؛ ولكن في
الوقت نفسه كان للأم غيرة حنون تحول دون تقوية هذه
النار المجهولة وتنميتها في نفسه ؛ جعلته أمه عاجزا حتى
لا تفقده ، ولم تكن تسيطر عليه إلا لأنه قد تجرد من كل شيء
وربته على أن يحذر من المرأة وأن يزدريها . فقد كان
حتى الخامسة عشر من عمره لا يعرف إلا نوعين من المرأة :
« إمرأة تكبلك بالأغلال » و « أخرى تسب لك
الأمراض » . غير أن هذه العقبات لم تقف بطبيعة الحال ،
في سبيل شخص يريد الحب ، إلا أننا لا ننسى أن فرنان
من ذرية أولئك الفلاحين الذين يشاهدون في الطرقات ،
في أمسيات أيام السوق ، أذرعهم مسترخية ، وأيديهم
خالية ، سائرين كالملوك ، في منتصف الطريق ، تتبعهم
نساؤهم متعبات ، يحملن سلالا ، تنوء بالحмир ، ثم نما

كبرياء فرنان نموا مستمرا فغدا من هؤلاء الشبان الذين
يؤمنون إن من الصعب أن يظفر المرء بإعجاب المرأة إلا
إذا قدم لها ثمنًا ، « وإن من تخضع لهم النساء دون مقابل
إنما ينفقون في سبيلهن أكثر من غيرهم ، أما أنا فإني
أقدم لها الثمن ولا داعي للورد والهدايا والتكاليف
الجوفاء . »

غير أنه الآن ، يستلقي في الدجى على سرير ماتيلد ،
ويشاهد نهارا رائعا يحرق في ممر الجنوب ويرى ، من
وراء شجرات الحناء الطنّانة بأسراب النحل ، هذا
الجسد الغض بينها . . . ألا تعتقد ، إن كان لا بد أن
تتسلح ضد أمك ، أنك تجرأت على تفريق الغصون
وجذب هذه الفريسة الجسدية إلى نفسك وهي تفوح
برائحة العسل ؟ حقاً كان جوع التشفى يثيرك قبل كل
شيء ؛ ولكن هذا الجوع قد أخفى جوعاً دفيناً ،

وإنك تهتدى إليه في الوقت الذي لا يسمح بإشباعه
حين تكون فريسة اللحم المعطرة قد ذابت
وأصبحت هذا الشيء البشع الذي لم يصبح له اسم
ولا رسم ...

ونفض وطاف في الغرفة عارى القدمين يتخبط باللائات
وقال بصوت عال: « إنها كانت تحبني لأنى كنت
أعذبها ... » وهز رأسه الضخم وزمجر قائلاً: « لا . لا
ليس هذا بحب ... » وتقبض وجهه يريد أن يبكي كما
كان يصنع في طفولته . وجمد لحظة وقرض أظفاره وقال:
« رجل آخر؟ آخر؟ ... » ولم تأخذه الغيرة حتى في هذه
الساعة؛ لأن كبرياءه المتناهية كانت تحميه . ماذا؟ رجل
آخر في حياة ماتيلد؟ كان على وشك أن يتألم ولكنه
تذكر ما كانت تردده أمه مائة مرة : « هى أمينة

لا نستطيع أن ننزع هذه الصفة عنها ، هي لا تملك إلا هذه الصفة ، وتملكها فعلا . . . » وأردفت قائلة وهي تنوه بالسيدة كوستو التي أنجبت ماتيلد : « في هذه المرة فقط لا يمكن أن يُقال إن الكلب الأمين يُطرد من فصيلته . » فلم يكن يعلم فرنان أن هذه العجوز ، عندما امتدحت كنتها كانت تشير إلى يوم تناولها الغداء عند بعض نساء أسرة ميرليه عقب العودة من حفلة عرس . وكان يجلس على شمال ماتيلد ملاحظ في الكلية قيل إنه شاعر . وجلس يُدلى بنصائح إلى إحدى آنسات ميرليه وكانت شاعرة أيضاً . وبدا لفيلستيه كازيناف أن ماتيلد ، في أثناء تناول الطعام ، تتشرب كلمات هذا الفتى الأسمر الجميل . ولا يعلم إلا الله ماذا كان في نفس ماتيلد في ذلك الوقت من تراخ وتهلوان أو عنصر خفي أو ميل غير محسوس ، نحو هذا

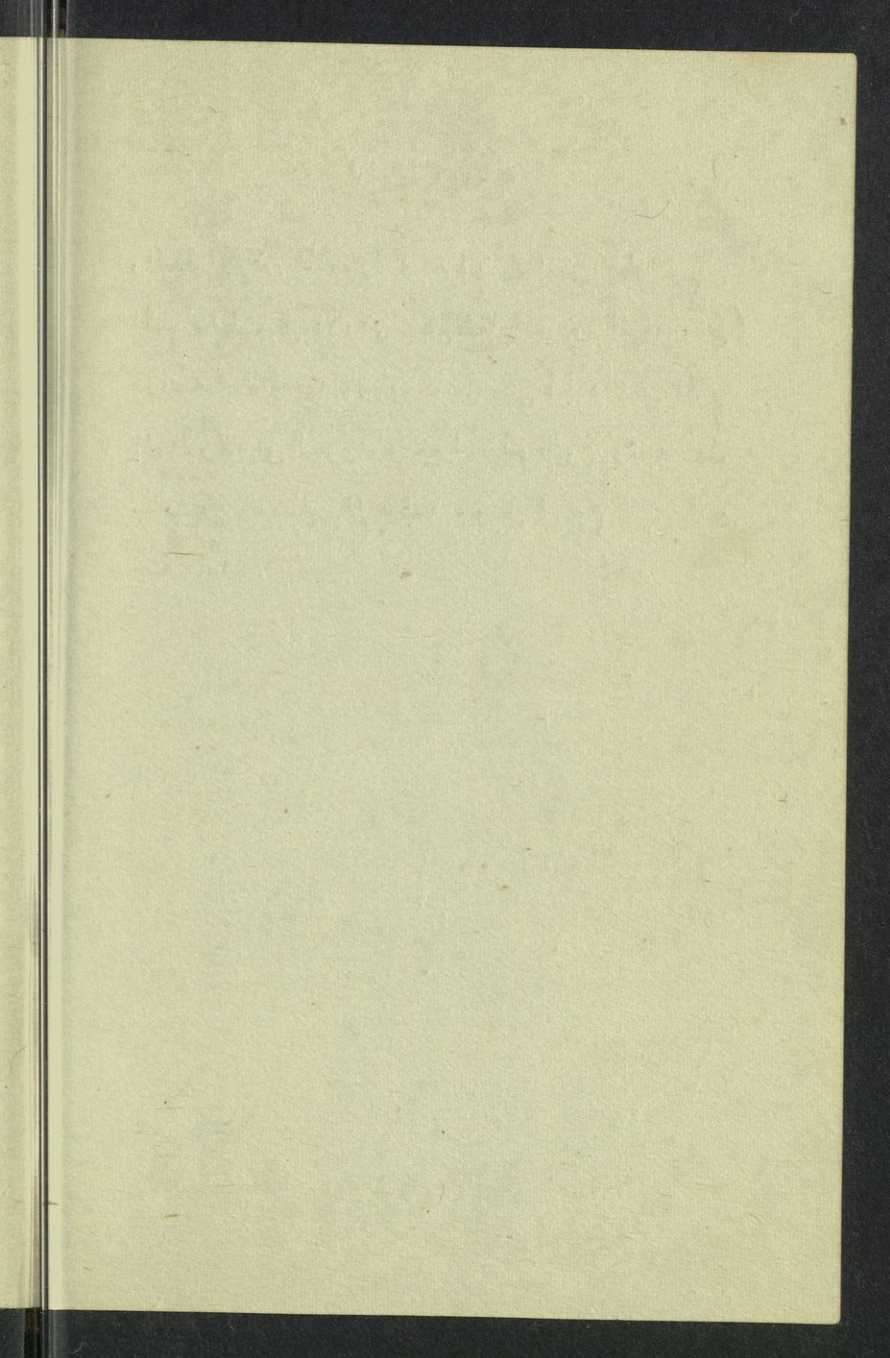
الرجل الذي أخذ يخفض من صوته حين أنشد بيتا من الشعر في جلبه الوجبة المنفضة . وتضاحك بعض سكان اللاند ، فأحالت الضحكات وجوههم . أما الشاعر فلا شك أنه كان يحلم في هذا الوقت بقصة غرام كالتى يعرفها في بطون الكتب ولكنه بعد أن قدمت القهوة ، أحت عليه فيلستيه ، فى غباء ، أن يسمعها قصيدة . فرفض ، فرجته أن يقبل ، على الأقل ، كتابة بعض أبيات فى كناشة كانت كنتها تنقل فيها قطعاً مختارة من الشعر . ومنذ ذلك الوقت تنبهت ماتيلد : فلم تكن تعرف فيلستيه كيف تخفى تديرها وكم كانت كنتها تفخر بأنها « تسمع دائماً وقع قبقابها الضخم وهى مقبلة من بعيد » . فلم يعد ينال منها الملاحظ لحظة أو التفاتة . ولما حضر لزيارة آل كازيناڤ ، رفضت ماتيلد أن تنزل إلى غرفة الاستقبال ، مما جعل فرنان ينام نومة هادئة ، فإن الفتاة البائسة

لا تعرف كيف تكسب أرقام النجاح أو تزيح عن نفسها
الضربات الموجهة إليها، ولم تخن زوجها في سرها وإعلانها.

لم يُطل التفكير في مثل هذا الأمر، ونظر، فرأى
حياته أمام بصره صحراء جرداء، فكيف استطاع أن يعبر
هذه الرمال القسيحة من غير أن يموت عطشا؟ ولكنه
ما كان يحس بمثل هذا العطش في خلال السنين الغابرة،
وها هو ذا الآن يشعر بالعذاب، وقد ماتت ماتيلد قبل
أن يعرف أنها كانت ظمأى، ماتت ولكنه لم يمت.
وخطر له أن نبعا جاف، وأن آلافاً من الينابيع المجهولة
منبعثة متدفقة، فما أيسر أن يحل شيء محل ماتيلد. لأول
مرة يذوق فرنان طعم الحب، لهذا فهو ثائر على هذا
السراب الذي يغمر بالظلمات الكون بأسره حتى يغمر
بالضوء شخصاً بمفرده. إنه طفل عجوز فاسد تعود أن

يستغل كل شئ من لذته ، ويستفيد من كل شئ في حياته ،
لهذا ردد في نفسه أن ماتيلد كانت فرصة سنحت
لاكتشافه اللذيذ ، فلماذا لا يستفيد به مع امرأة
أخرى . . . ؟ وأية أخرى ؟ واستعرض في مخيلته تلك
المناشف وهي تجف على نافذة تطل على شارع هجورى . . .
أية أخرى ؟ ففي عالم دقيق من حياته المنحطة ، في هذا
الشرك المنسوب ، في هذا النسيج اللزج الذى نصبتة أمه
من حوله مدة نصف قرن لى تجميه ، وهو كالذبابة
الكبيرة المصيدة ، يتخبط فيها ويتقيد بها ، في هذا كله .
أشعل فرنان ثقابا وتأمل نفسه وهو يرفع الشمعة أمام
المرأة . حقاً إن العبادة تخلق الصنم . ولعل ماتيلد ،
ماتيلد بمفردها هى التى كانت تستطيع أن تتعلق بهذا الإله
الهرم الغضوب الذى خلقته أربعون عاماً من عبادة الام .
إذن لقد سبق السيف العدل ! واقترب من النافذة وشم

رائحة الأرض المقهورة ، فعرف أن بعض قطرات من
المطر سقطت على الأرض ، فانبطح على أرض الغرفة وثني
ذراعيه تحت وجهه ، وظل كذلك حتى ألجأه التعب المرير
إلى الارتقاء على السرير . وأخيرا أنقذه النوم وتنبه أول
سرب من العصافير فلم يوقظه ، وظل في نوم عميق كأنه
جثة هامدة .



وفي وجبة الغداء التي تلت هذا المساء ، جلست
 فيلستيه كازيناث أمام ولدها الشيخ ، وأصبحت ، لأول
 مرة ، لا تفكر فيه على أنه ملك استولت عليه
 امرأة أخرى ، وهي تجدد في رده إليها مهما كلفها الأمر .
 إلا أن حبها قد بدأ يشبه حب سائر الأمهات ، الذي
 لا يصر على شيء بدلا من الذي يعطيه . هذه العجوز
 الصامته تجبر نفسها على الأكل ، وتعصف في قلبها
 العاطفة المنهزمة التي قبلت أخيراً أن تتخلى عن حيازتها

المقدسة : ليكن سعيداً قبل كل شيء ! ولو كان في يدها
السلطان لنادت ماتيلد من شاطئ الموتى ، فإن نشوة
التنازل قد كشفت لحبها منظرًا فتنها وأعجبها . تلك غريزة
الحب الذي لا يريد أن يفنى . عند ما تزول أرضه من
تحت قدميه ، وتنهدم سماؤه المألوفة لديه ، قسرعان
ما يخترع الحب سماءً أخرى وأرضاً أخرى . تلك ساعة
يهمس فيها المبعّض للذي لم يعد يحبه : « لن ترائي بعد ،
لن أثقل عليك ، سأعيش في ظلك ، وسأحوطك بحماية
رفيقة لا تحس بها . » هكذا كانت فيلستينه كازيناف عند
نشوة انهزامها تلقى إلى عاطفتها النهمة بالتنازل عن هذا
اللون من الحب الذي يمدّها بالعناء . وشقت الأم السكون
بنغمة توصل قائلة :

— أنت لا تأكل يا عزيزي . يجب أن تأكل .

فأجابها هون أن يرفع رأسه :

— وأنت لا تأكلين .

وأضاف بطبيعة تربيته المدللة :

— لا أستطيع أن آكل وحيداً حيال شخص
ينظر إلىّ .

— لكن ... نعم يا عزيزي : إنني أشعر بمجوع شديد .
وبالرغم من أن حلقتها كان منقبضاً أرادت ابتلاع
لقمة . وبعد أن ترك المائدة ، ونأى متجهاً نحو جناح
العدوة ، نادته قائلة :

— أريد أن أحدثك يا طفلي .

فتردد لحظة ثم تبعها إلى المكتب ساخطاً وقال لها :

— ماذا تريد مني ؟

ووربت ضلف النافذة ونظرت ، فلم تمالك أن تهمس
إليه :

— إنني قلقة من أجلك ، فالحياة التي تسير فيها لا تفيدك

شيئاً . إنك كما تقول ماري دي لادوس « تأكل من دمك . » فلا بد أن تجد ما يلهيك . . . أن تقابل هؤلاء القوم . . أنت في قوة سنك ونحن على بضعة أشهر من انتخابات البلدية .

فزجراً قائلًا إن كل شيء قد انتهى منذ زمن بعيد كما كانت تحب . وظلت صامتة ، فسألها ما إذا كان هذا كل ما تريد أن تقوله ، فأمسكت بذراعه وقالت بحرارة :
— لا أريد أن تلقى بيدك إلى التهلكة . لن أتركك تموت . . .

— كما فعلت بالآخرى ؟

فصاحت أن لا شأن لها بموتها ، ولا شيء كان يدل على هذا الالتهاب . ولماذا لا نصدق كلام الطبيب دلوك أن لا داعي للسهر عليها ؟
— ومن جهة أخرى فقد ذهبت لرؤيتها في تلك الليلة .

— أعلم ذلك .

— وقرعت بابها وسألتها هل هي متعبة ، فأجابتنى بأنها ليست في حاجة إلى شيء ، أضف إلى ذلك أن فرصة علاجها لم تكن قد فاتت : فقلبها هو الذى خانها كما قال دلوك مائة مرة . وما كنت أنت ولا أنا بقادرين على أن نصنع شيئاً من أجلها . كان من الممكن أن تعيش عدة أيام أخرى ، لو أنها كانت مصابة بالالتهاب وحده ، ولكن زوجتك كانت مريضة بالقلب .

أرادت أن تقنع ولدها وتقنع نفسها كذلك ، وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم رفعت صوتها كأنها تريد أن يسمعها شخص غير مرئى يسترق السمع . ونأى عن الباب قليلاً وهي تتحدث ، ثم غطى وجهه بيديه وصاح قائلاً :

— أنت قتلتها ، أنت تسببت فى قتلها يوماً بعد يوم .

فاحتجت غاضبة وقالت :

— هذا غير صحيح ، كنت أدافع عن نفسى وكنت على حق . وعلى كل فقد كنا شخصين اثنين !

— ماذا تريد من قوله ؟

— من منا نحن الاثنين أساء إليها إساءة أشد ؟

أجب !

ومرق فيها الغضب كشعلة من النار ، فاحترق كل ما كانت تتمناه منذ هنية من التنازل والتسامح . ولم يعد مجال للتضحية ، وأصبح ههما أن تنتصر على الولد الثائر كما كانت تفعل معه من قبل ، فظلت تصيح :

— إذن يا بنى فلتعلم أن أمك قد احتملتك كثيراً ، وها هي ذى خمسون سنة ألزمتك فيها ملازمة الظل . إننى أمك ، ومع ذلك فأنى أسألك نفسى كيف لا أنزال على قيد الحياة . ولما أن جاءت الأخرى إليك . آه ! البائسة ا كنت

على يقين أنها لن تبقى معك طويلاً. إنك لم تكمل معها عاماً ...
— أسكتي ! لا تزيدى كلمة

وتراجعت حيال وجهه الأغبر ويده المرتجفة المرفوعة .
وظل يقترب منها فاستندت على الحائط وردت على المجنون
بابتسامة ، كأنها تتحداه : « اضرب فى البطن . »
ولكنه توقف فزعاً مما كان على وشك أن يحدث .
وأفاق فنظر إلى العجوز وهى مبهورة الانقاس ، أمه التى
خرج منها وتربى فى أحضانها . ونظر إليها برهة ،
وانبثق حنان الطفولة الخفى فى صبيحة بأسة كأنه يحطم
غلافاً متحجراً :

— أماء !

وبما أنها كانت قد انهارت فوق الأريكة ، أسند رأسه
على كتفها الظاهر فعاد إلى ملجئه الحى يكن فيه ، فماله من
ملجأ آخر فى الوجود يلتجئ إليه منه ! مثله كمثل رجل

يئس من الحياة فأراد أن يهجر الأرض فلم يجد مهرباً منها
إلا إليها فاستلقى عليها ، وخذش بها وجهه ونسم من
جوفها الظلام . هكذا كان هذا الرجل وهو يضم إلى آخر
طاقة أمه العجوز . ولبثت وهي خائرة القوى ، محطمة
تتذوق سعادة هذه اللحظة وجفونها مغمضة ، وهي
تعلم أنه سيثوب عاجلاً إلى نفسه وينصرف عن حنانه .
وأيقنت أن ضعفه الوقتي سيكون لها مصدر حزن جديد .
آه ! كم تمنيت أن تكون هذه اللحظة أبدية ! غير أن ذراعها
تتخدر تحت عبء رأسه المتثاقل ولكن أليست هي أمه
التي سهرت عليه وتعذبت من أجله في ليالى الشتاء القوارس
أيام أن كان لا يستطيع أن ينام إلا وهو ممسك بيدها ،
فتظل ساعات طوالاً تبسط إليه ذراعها ، خارج السرير ،
وتترك يدها لهذا الجلال الصغير ، ولا تغادر شفتها جبهة
ولدها الشيخ وهي تشمه كما تفعل السائمة . لا . لا لن تثيره

مرة أخرى . ها هي ذي الآن تطرب لهذه السماء الجديدة التي لمحتها . أنها لا تطلب شيئاً أكثر من ولدها الموجود بين يديها . إنها ستعيد إليه لذة الحياة ، وستلده مرة أخرى . كذلك كانت تسلم نفسها إلى الخداع بأن حبیبها يستطيع مثلها محاولة أن يولد من جديد . ولم تكن تفهم أن هدف عاطفتها الخاصة كان هنا ، حياً ، ماثلاً بين يديها ، لاصقاً بركبتيهما ، ولم تكن تطلب أكثر منه لكي تتحدى به القدر . أما هو ، ذلك الولد الفاسد ، فقد كان في خلال نصف قرن يحطم اللعبة بعد الأخرى . وفقد اللعبة الأخيرة في اللحظة التي اكتشف فيها أن ثمنها غالياً لا يقدر . فانظري إليه ، أيتها المرأة البائسة ، ها هو ذا ينهض فيجفف بظهر يده جبينه الذي يتصبب عرقاً ، ثم يتباعد فتسمعين خطواته يتلاشى وقعها في المنزل الهامد .

Handwritten title or header at the top of the page.

Main body of handwritten text, consisting of approximately 12 lines of script.

وتلت ذلك فترة تراخٍ استمرت بضعة أيام ، همد فيها كل شيء ، حتى السماء توقفت عن نشاطها ، فهبت عواصف طوال الأسبوع ، على الريف المهجور (وكان هذا فصل تعرض الشمس لأشجار السكروم) . وكأن القاطرات قد أصابها من هذا الحمل شيء ، فغدت تشق طريقا متعبا في أيام القيظ ، فقد قيل إن الحرارة مددت قضيبا بين بلدي لاريول وطونيا . وأخيراً ، في ذات ليلة ، تنهت الأم وابنها على تهامس أوراق الشجر ، وقد ارتشفت بلهفة أول الغيث حتى إن أكثر

من ساعة قد مضى قبل أن يمس المطر وجه الأرض المحترق
مساً يشق الأرض ويصعد ريحها . . . ريح من الرغبة ، لم
تبلغ حد الإشباع بعد ، إلا أنها قد استحالَت بهجة
وسرورا . وفي المناطق النارية تتفق أهواء الرجال مع قوة
السماء ، وقد تهدأ معها . ففي خلال وجبات الطعام لم يكن
فرنان معرضا عن أمه إعراض المبعض بل كان يصطنع
التوقير والعناية ، ويبذل وهو على المائدة كل رعاية جديرة
بسيدة عجوز ، فلا يتركها إلا بعد شرب القهوة ، فصارت
من شدة حذرهما واحتراسهما لا تحاول الإيمعان في هذا
الفوز الذي أحرزته والرضا الذي نالته ، ورددت في نفسها :
« سأنقذه . . . » ولكن واأسفاه ! فهما كانت معاملته
لها بالحسنى ، فإن جرحه من أجل عدوتها لا يزال ناغلا
يؤلمه .

كان يحيط بهذه الرواية ذات الفصول ، أشجار

باسقات ، كالخزامى ، والهور وجوز الهند والجوار والقرو
وقد تمايلت أوراقها المثقلة بالمطر ، تحت سماء لينة . وفي
هذه الأشجار ، استطاع الابن والام أن يحتميا من
النظرات الأجنبية . وقد جرت العادة أن كل ما يقال عن
القرية وعن أقاويلها لا يكون صحيحا إلا في محيط الفقراء
الذين يعيشون ، أبوابهم متلاصقة وحيطانهم متجاورة .
أما هذه الممتلكات المحاطة بالأسوار ، المحاصرة بالأشجار ،
فلا شيء أقل منها تعرضا للأنظار وأحسن ملاءمة
للألفاظ ، إلى حد أنه يبدو أن الذين يعيشون فيها لا صلة
لهم بالخارج ، اللهم إلا ما كان يربط بعضهم ببعض
أو يربطهم بالسماء . أما في المدينة فقد اعتقد أهلها أن
سلوك آل كازيناث سليم لا غبار عليه : كلما ضعف تأثرنا
بفقد فرد من الأسرة ازدادت مظاهر حزننا الخارجية .
وهكذا كان يؤول اعتكاف الأم وولدها في المنزل .

في خلال شهر سبتمبر الزاخر بالمطر ، خرج فرنان ذات صباح وعلى كتفيه حرملة ، وعلى رأسه قلنسوة تأخذ شطراً من وجهه ، وأخذ الطريق الضيقة التي تفصل الحديقة عن سكة حديد بوردو — ست . فقرأ على عربات البضاعة المخزونة في ذلك المكان : « رجال ٣٨ — ٤٠ » . ولم يدرك ما تنطوى عليه هذه الكتابة من فآل مخيف . ثم عاد إلى منزله فتركته أمه حتى يقترب منها ، وتفرست في وجهه المستغلق ، ولاحظت مظهر تراخ وهدوء يزداد يوماً بعد يوم ، فاعتقدت في بادئ الأمر أنه يتظاهر بذلك . وهل كان في استطاعته أن يحتفظ بهذا التغير ذلك الوقت الطويل ؟ لا بد أن سلوة قد أتت إليه من جهة أخرى — سلوة مجهولة . إن صحته قد تحسنت مرة أخرى دون أن يكون لها يد في ذلك التحسن ، وهي التي طردت فيما مضى الخادمة ؛

لأنها زعمت إنقاذ فرنان من الحمى القرمزية التي كان قد أصيب بها . واليوم تنقذه الميتة ولا سلطان للأم على طردها . وهكذا انهار عمادها الأخير : فهي لم تعد عليه بنفع ، ولم تكسبه خيرا ، ولم تذكر ، منذ بدء طفولته التي مسختها الأهواء ، أنه ابتسم كالطفل ، بمثل تلك الابتسامة المهمة الوديعه . وكم رددت الأم في خلال خمسين عاما : ماذا يحدث لك بدوني ! من حسن حظك أني على قيد الحياة ! فإذا ما فقدتني ! « فوا أسفاه ! لقد أصبحت الآن أمام عينيهِ شيئاً لا قيمة له ، ولا غناء فيه ، وقد استطاع بدونها أو قل بالرغم منها ، أن يستعيد هدوءه . إن العجائز مؤمنات بحاجتنا إليهن ، وأن الله ، لذلك ، قد أظال في أعمارهن . فنهن من تموت يأسا من كونها أصبحت لا تجدى فتىلا ، ومنهن من تترد إلى الحياة ، بعد أن أوشكت على الموت ؛ لأن ابنة أرملة أو

أطفالاً يتامى يصيحون بالنجدة والمعونة . وتلك فياستيه
قد عجزت عن القيام بخدمة لولدها ، وهل استطاعت
إسعاده حين كانت تسيطر عليه ؟ وناوأها سكون الليل
فلم تستطع أن تنام ، وأبرمها وجود الغرفة الواقعة خلف
الجدار خالية خاوية لا ينام فيها الولد العزيز . وخطر لها :
« إن أية حياة أخرى ستقضى عليه ، وسيموت إذا
ما استسلم إلى نفسه . . . » ما الذى كان يدفعها إلى هذا
القول ؟ الهواء البعيد يعدو فى منطقة اللاند ، ويصل إلى
الضفاف النائية المجهولة حيث كانت أبعد أشجار الصنوبر
تنأى عن أغصان سوتيرن المقدسة . وهناك توقفت
الريح ، لا تعرف لها وجهة ، ثم انقضت على أشجار
الحديقة فجأة ، فاهتزت كلها مرة واحدة .

وعلى كل ، فلم يبق لها إلا عمل أخير تسديه إلى
الحبيب . إن الميثة التى كانت سلوته قد أثرت فى عقله ،

لا في جسمه المعذب . ذلك الجسم الذى هو بضعة من أمه وكان ملصكا لها ، فيجب أن تُعفى به . وقد استشارت الطبيب دلوك خفية بعد أن رفض فرنان أن يقابله ، وأشار الطبيب أن يقضى فرنان على نفوره من الطعام بالإكثار من تعاطى مقادير من الدم . وحرصت فيلستيه منذ ذلك الحين على أن تصحبه معها إلى المائدة حتى تشجعه على الأكل . وبالرغم من أن حالة شرايينها كانت تلزمها بنظام خاص للأكل إلا أنها كانت تملأ جوفها لحوماً حمراء . وكانت فى كل وجبة تدور هذه المناقشة :

— لم تأكل يا عزيزى .

— وأنت أيضاً .

— ولكن ألا ترانى آكل ؟ خذ قطعة من اللحم .

— سأخذ منها إذا أخذت مرة أخرى .

ليس الاستشهاد قاصراً على التضحية في سبيل الرفعة
فحسب ، بل قد يضحي المرء بحياته بأن يختار لنفسه أخط
أنواع الموت .

لم تتعود أن تعيش وحيدة : طافت بعد الظهر في المطبخ
ولم تمنع نفسها من أن تبوح إلى ماري دي لادوس .
— لم يكن يطيقها وهي على قيد الحياة ، فلامعنى
لأن يحزن عليها بعد الموت .

— حقاً ياسيدتى !

— ويتحدث عنها أماًى بقصد تعذيبى . ولقد أخطأت
حين تركته يعرف أننى أضيق بذلك الحديث ذرعاً وأتمزق
منه غضباً .

— حقاً ياسيدتى !

كانت ماري دي لادوس تطحن البن وحينها كعيني

كلبة تبسط ذراعيها ولا تغادر بصر سيدتها خوفاً من أن تتأخر ثانية عن إظهار الاستحسان لحديثها . فكانت ابتساماً الطاعة على وجهها دائماً ، وجه العبيد الأرقاء . ومع ذلك فقد ظلت خرساء لا تتكلم حين قالت لها السيدة :

— إذا مات المرء استغرق زمناً طويلاً في موته ، ولكن كما يقال ، سرعان ما يذهب الموتى .

سكنت ماري دي لادوس ، كأنها لا توافق على هذه العبارة ، فقد تعودت كل يوم أحد ، في قداس الساعة الأسابعة ، عندما ترجع من المائدة المقدسة وعلى شعرها نقاب الزوجية ، كانت تحس من صميم قلبها الوفي أن أسرتها الراقدة قد بعثت من جديد منذ عهد جدتها ، التي لعلها قد تركت تموت جوعاً ، ومنذ أبيها وأُمها القاسيين حتى زمن زوجها ، ذلك الرجل العايب چاورست

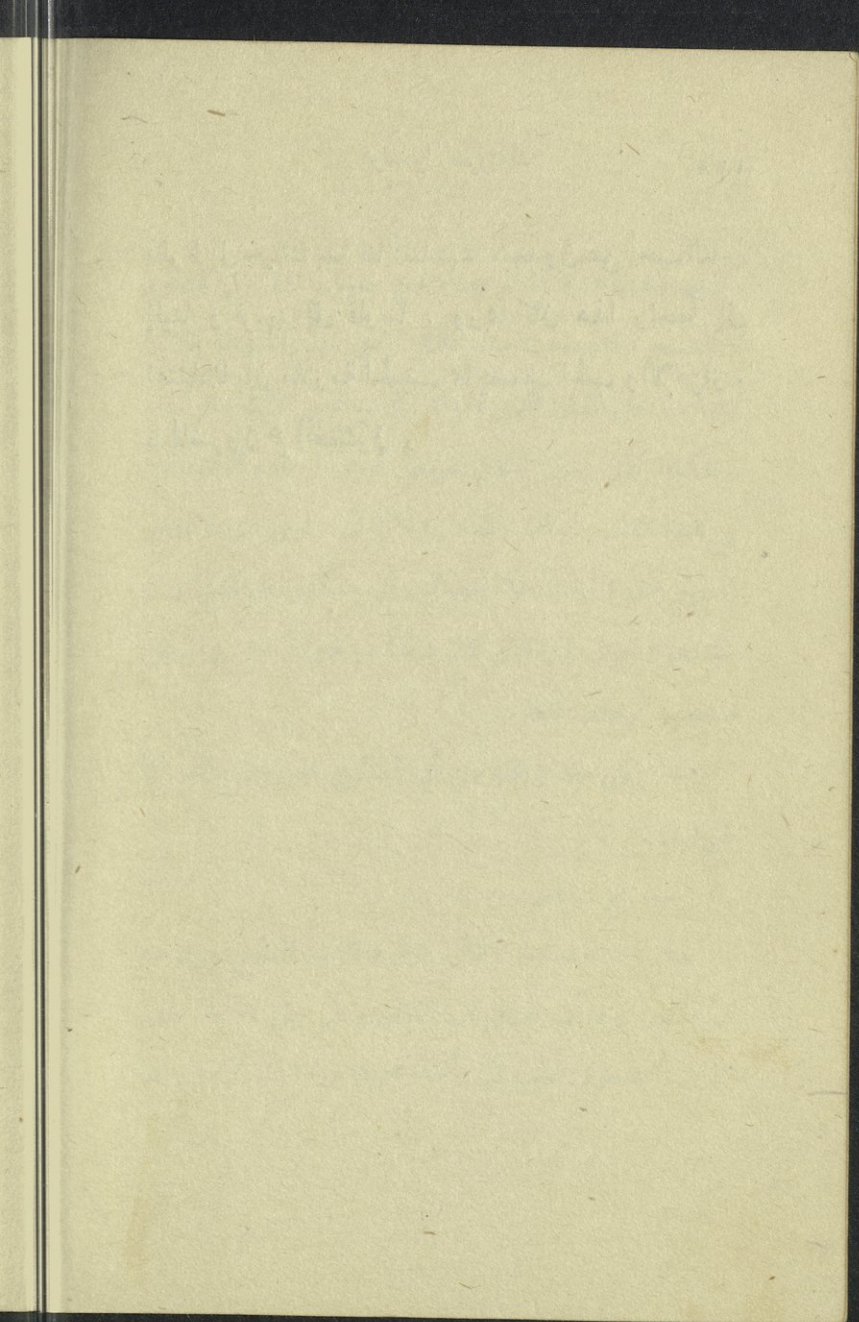
الذي أخذها ، ذات مساء من صيف ٤٧ بين غصون
الخلنج ، فأصبحت منذ ذلك الحين مطية له مدة ثلاثين
عاماً ، وحتى طفلها الذي فقدته وله من العمر ثلاث سنوات .
وهكذا كان إيمان سكان ضيعة قديمة مجهولة يستيقظ
في هذا القلب العامر بالله ، ولا تزال ماري دى لادوس
تدعو لجمهرة أجدادها المجهولين أن يسكنوا في قلبها وأن
يجتمعوا حول الله الذي كان دائماً موجوداً فيه . ولكن
فيلستيه أردفت قائلة :

— إنني جد واثقة من أن الغائبين مخطئون دائماً كما
يقولون .

— أوه ! نعم .

ولم تزد فيلستيه كلمة . وتركت المطبخ مرفوعة
الكتفين وبدأت تدرك أن الغائبين على حق دائماً : فهم
الذين لا يمنعون الحب أن يأخذ مجراه ويحدث أثره ؛ وإذا

نظرنا إلى حياتنا بدا لنا أننا دائماً مبعدون عن أحب الناس
إلينا وأقربهم إلى قلوبنا . وربما كان هذا راجعاً إلى
اعتقادنا بأن ملازمة الحبيب مما يضعف الحب والإعزاز .
فالحاضرون هم المخطئون .



وحل الفصل الذى تبدأ فيه البرودة المنعشة ، ويتردد
 المرء حيال أول نار توقد كما يتردد أمام مصير مجهول .
 وأصبح آل كازيناف قبل كل وجبة وبعدها يمشون فى
 المطبخ . فكانت فرصة لاقترب الام من ولدها ولم
 يكتف فرنان بإظهار عدم الاكتراث وإنما دل حديثه على
 ممل خفى يجرى فى طيات نفسه فكان يسألها بشغف
 غير منتظر :

— هل كان أبى وأنت يجب أحدهما الآخر ؟

سؤال غريب من شخص كان فيما مضى لا يفكر في الموتى بقدر تفكيره في الأحياء ! ولم تحر أمه جواباً ؛ إذ قدرت أن كلمة الحب قد أخذت في فم ابنها معنى جديداً ، عميقاً ، فألح عليها قائلاً :

— هل كنت تحبين والدى قدر ما تحبيننى ؟

فأجابته أن « لا محل هنا للقياس » ؛ فلا علاقة مطلقاً بين ما يوحى إليه الحبيب من الحاجة النهمة إلى السيطرة الروحية ؛ فكل آلام الحب ولذاته معتمدة عليه راجعة إليه ، أو قل إن حياة الحب متعلقة بحياة المحبوب ، وبين هذه الرابطة المعتادة أو الزمالة التى كانت بين الأرملة والراحل فقطعها الموت فى زمن مبكر دون أن تذرف عليه دموعاً غزيرة . فقدمات نوما كازينااف وحيداً فى المنزل ، إذ حدث فى عام وفاته أن ذهبت فيلستيه مع فرنان لمعالجته بيماء بلدة سلى . وعلمت بحادث سقوط زوجها فى الطريق أمام

الوجود إلا إلهاً واحداً وإلاً حباً واحداً . وبصره
 مثقل بالنوم يشخص ، بين لحظة وأخرى ، إلى الشبح
 المظلم المزدوج المائل أمام الموقد . وغسلت ماري دى
 لادوس الأواني فى الدلو كما كانت تفعل منذ ستين عاما .
 ثم رجعت ، فوجدت حفيدها راقدا ، فاجر القم ، مسند
 الرأس إلى المنضدة . فتأملته : وأضاءت ابتسامة تفوق حد
 الوصف وجهها المنحوت من فروع البقس العتيق ، وجه
 الذراء السوداء . وحملته بين ذراعيها مع أنه كان فى
 عمر يسمح له بالقربان الأول ، وظل رأسه الجميل ثابتا
 لا يتحرك ، وساقاه المخدوشتان القذرتان تترججان ،
 وحذاؤه الحديدى يشبه حافر الحمار الصغير . حملته معها
 دون أن تنثنى : فقد حدث وعمرها اثنا عشر عاما وهى
 خادمة لأجير فى إحدى القرى ، أى خادمة خدم ، أن كانوا
 يجبرونها على أن تمسك طفلا فى كل يد ، ثم يربطون المولود

الجديد في ظهرها النحيل : فإذا ما بكى راغوا عليها
ضرباً...

وشعرت فيلستيه أن الحبيب ينظر إليها ، فشخصت إليه
ولم تحظ منه منذ أيام بمثل تلك النظرة العذبة . وتحاملت ،
من فرط تأثرها ، على قدمين مثقلتين ، وطوقت بيديها
عنق ابنها ، وجذبت رأسه نحوها وقالت له :

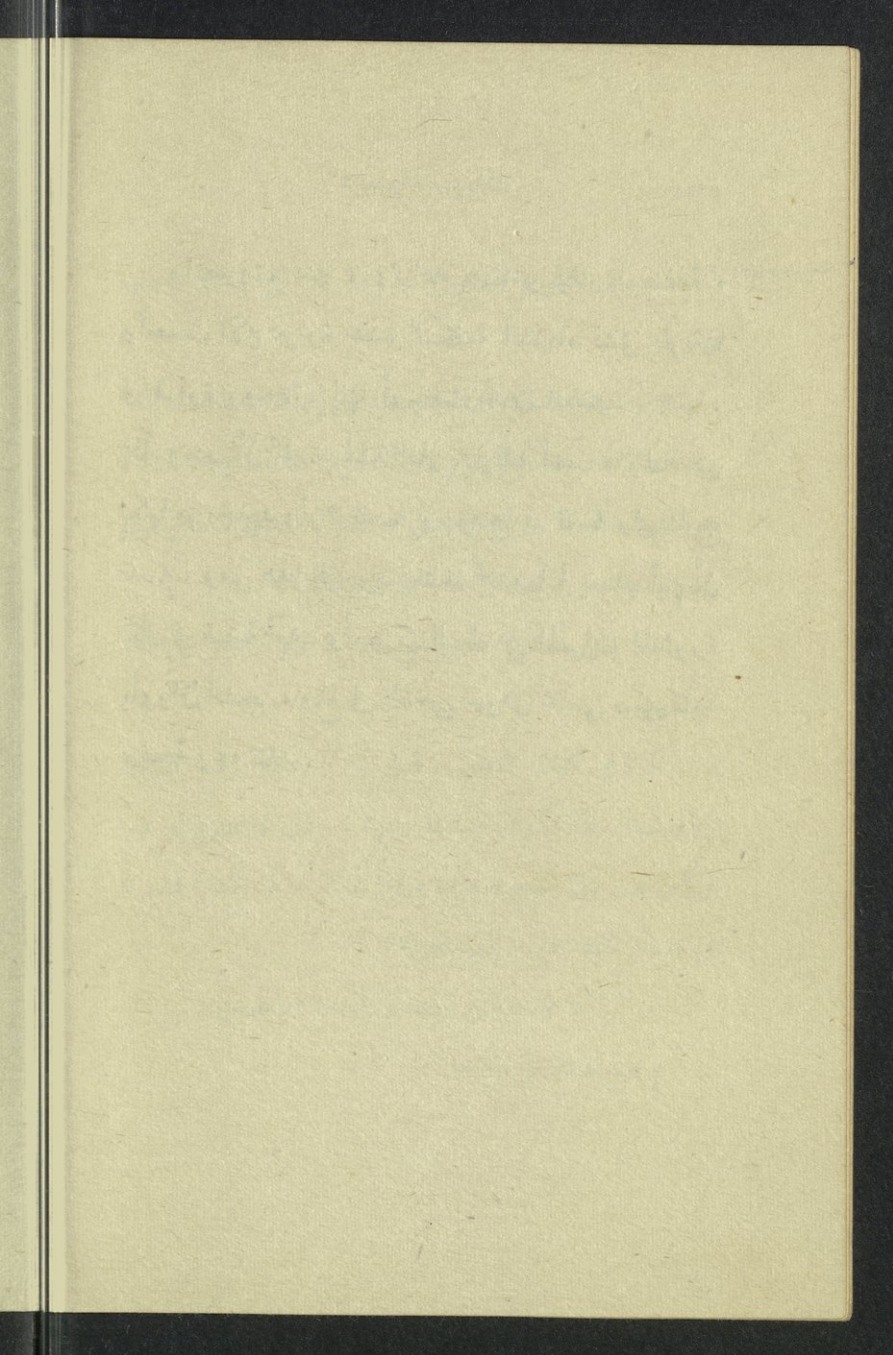
— إننى أحظى بطفلى من جديد فهو يحنو على أمه
العجوز .

آه ! لو كانت تقدر ، قبل أن تخاطبه بهذه اللهجة
الحانية ماذا تكون إجابته عليها ! إذن لانصرف عنه
ولامتنعت أن تفتح له قلبها ، فلا شك أنه قد طعنها بضربة
في صميم قلبها حين أجابها بقوله :

— إنها « هى » التى تريد أن أعاملك بالحسنى ...

ثم طبع قبلة على خدها .

وانصرفت عنه ، وتباعد هدير قطار البضاعة ،
وأحست الأم بمرارة هذه الكلمة الشنعاء تشق طريقها
في قرارة روحها . إنها أصبحت تدين للعدوة برحمتها .
إذاً وجب أن تخضع لهذا العار . ولقد أحب ماتيلد حتى
بعثها من جديد وأوهم نفسه بوجودها في نفسه وفي خارج
نفسه . ومن هذا الوجود استمد هدوءاً لم يعهده أيام أن
كان في قبضة أمه . وأمطرت السماء على الممرات المنثورة
بأوراق الشجر ، ولعل في الدجى حوض نحاسي صغير كأنه
صفحة وجه تتقد .



في مساء اليوم التالي ، جلس الابن وأمه في المكان
 ذاته وقال فرنان : « نستطيع أن نشعل هذه النار في غرفة
 المكتب » ، فأجابته فيلستيه : « سوف يطول الشتاء قليلا . »
 ذلك أنها تعودت حين كانت فتاة عذراء ، تقطن في منطقة
 اللاند النائبة ، أن تسهر في المطبخ المعطر بعبير البلوط
 والينسون كما هو الحال في هذا المساء ، وعلى ركبتيها
 كتاب « الفرسان الثلاثة » وكانت تعلقته حديثا ، يضاء
 بشمعة من صمغ الصنوبر . في هذه الساعة ساعة وجود
 الابن وأمه في المطبخ ، استطاعت ماري دي لا دوس

أن تجلس وهي تغزل . وعوت الكلاب إذ لمحت الخنازير
الوحشية تتعقب الأليفة وتجري وراءها ، وعلى المائدة
غطى الأبريق بمناشف بيضاء . وترك بعض الجيران قباقيهم
على عتبة الباب ، وتسربت معهم إلى الداخل نفحة من الليل
المشبع برائحة صمغ الصنوبر ، ومرت إحدى العربات تتقلب
على حفر الرمال . في هذا المساء صفر القطار وهو يشق
جوف الظلام فسمعت فيلستيه دقات صدغها ، فقالت
لمارى دى لادوس إنها تشعر بثقل في معدتها ، وإنها أخطأت
حين أكلت ثمانية من سمك الشعابيين ، وإنما فعلت ذلك لكي
يأكل ابنها ثمانية . ولا يزال هذا السهم الذي أصابها بالأمس
طالقا بجسدها . ولم تعد تتكلم بعد الآن فرمما سببت لها
كلمة ضربة أخرى . وأخذت ماري دى لادوس تسمع
من ريمون صلاة الايمان وكان يخطئ دائما في موضع
لا يتغير فتقول له :

— أعد !

— أؤمن بروح القدس وبالكنيسة المسيحية
المقدسة وبقربان القديسين وبغفران الذنوب وبحياة
الأبدية .

— وبعث الجسد ؟ أعد !

فأعاد مسرعا ولكنه ، كالحمار الصغير ، وقف عند
الهدف ذاته حائراً مأخوذاً فقالت له :

— أعد !

وأعاد الكلام في بطاء ثم انطلق يتابع الكلام في عجلة
حتى وقف مرة أخرى أمام « بعث الجسد » وأذناه قائمتان
فقالت جدته :

— أين يسبح فكر هذا الماجن ؟ أعد هذه الجملة

عشرين مرة .

فأعاد الطفل وهو يضحك كأنه يلعب تلك اللعبة التي

يسرع فيها اللسان قائلاً « صلصل الجرس صلصلة » : « بعث
الجسد ، بعث الجسد » .

فلما سكّت ارتفع صوت السيد :

— بعث الجسد هو عقيدة لبعض الناس . . .

فنفرت ماري دي لادوس ونظرت إلى سيدها على غير
عادتها كما هو الحال عند ما تثار المسائل الدينية أمامها
ولكنها اطمأنت حين رآته جاداً لا يضحك . وتظاهرت
فيلستيه أنها لا تفهم في أي جسد كان يفكر ، وصرفته قائلة :
— ألا تعلم أننا وعدنا ماري دي لادوس أننا لن

نتدخل في كل ما يتعلق بالإله . . . ؟

وأردفت قائلة :

— ما أشد عذابي !

فلم يجبها وهو يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً ، بينما
كانت ماري دي لادوس توقد الشمعة وبصحبتهما الطفل .

وأخيراً وقف جامداً في الركن الآخر من الغرفة في أبعد بقعة من النار، وألصق جبينه بالزجاج الأسود، فنادته أمه وهي ضحية ألم عميق فلم يسمعها ! ولم تكن تتصور أن حبيبها في عالم بعيد عنها إلى هذا الحد . ما بالها لا ترى إلا جسماً مظلماً مختلطاً بالليل ؟ وأرادت أن تناديه فلم يخرج الصوت من حلقها ، ما بالها لا تراه ؟ لقد اختفى ، تلاشى ، في ظلمات أواخر الخريف الرطبة . وأخيراً تجمعت فصاحت بعد جهاد عنيف :

— أين أنت ؟

فأجابها دون أن يدير رأسه : إنه ينصت إلى سقوط المطر . ثم ألصق وجهه من جديد على لوح الزجاج . وهكذا بقي زمناً طويلاً في خمول لطيف مصغياً إلى صوت نقطة واحدة من المطر ، تتساقط على ورقة شجرة من المانوليا كانت تلمس النافذة ، فإذا ما هبت الريح تساقط المطر من

الأوراق ، وإلى صوت قطار سريع ، مر ولم يقف ، كأنه
لمح خاطف من السرعة والمجازفة ، قد أضاء في جنح
الظلام . ثم إلى صوت آخر ، ارتفع أخيراً ، صوت غطيط
ظن أنه يعرفه : فقد حدث منذ عدة أسابيع أن أمه وقعت
بعد العشاء في سبات قصير كما يقع المرء في حفرة ضحلة .
وأخذت تغط بصوت أجش مطرقة الرأس ، فغرة النكسين .
وأراد فرنان أن يجمع شتات فكره ، ولكنه ضاق بهذا
الغطيط ذرعاً ، وأنصت ، فلاحظ أن للغطيط صوتاً عالياً
مختنقاً على غير ما تعودته من صوتها ، فالتفت وأخذ المصباح
من فوق المائدة واقترب من النائمة فلم يفطن من أول وهلة :
ففي وجهها الأغبر ، عينان تنفتحان لا حياة فيهما ولسان
يندلع بعضه من جهة الشمال . وكانت جامدة لا تتحرك .
وأما الجهة الأخرى فقد كانت متشنجة عوجاء ..

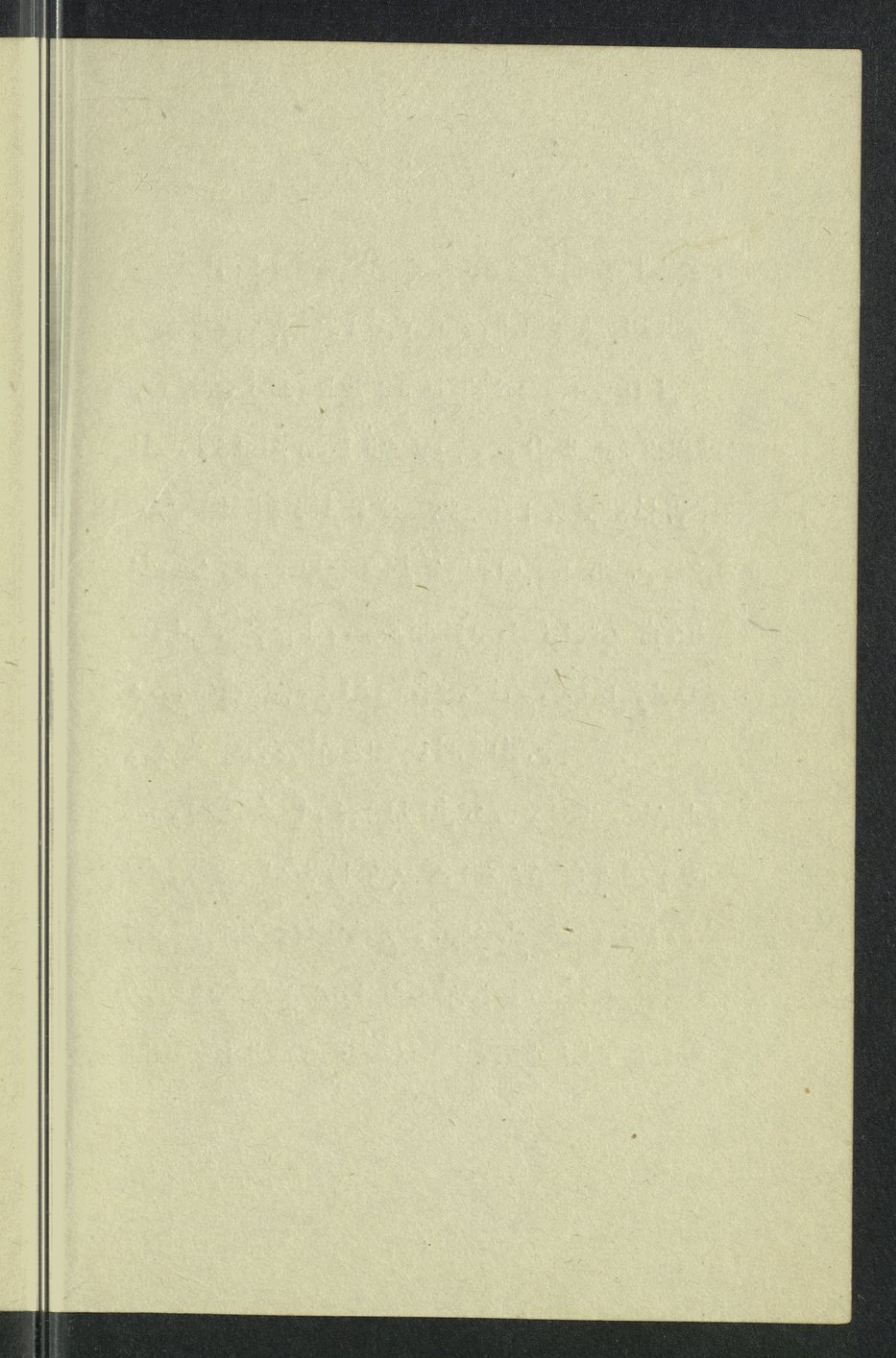
« لم يصنع بعد على هذا النمط » هكذا قال الطبيب
وقد أخذته الدهشة من أن المعجوز لا تزال على قيد الحياة .
ولقد ظلت مفلوجة ، لا تنبس ببنت شفة . ونقل سريرها
إلى مكتب الدور الأرضى حتى تمضى أيامها فى المطبخ .
قالت مارى دى لادوس :

— لا بد أن شخصاً أو شيئاً يشغل ذهنها ؛ فإنها
لا تكاد تسمع القطار حتى تنظر إلى ساعة الحائط لتعرف
هل فى الساعة تأخير .

حقا لم تكن تعيش إلا لتنتظر فرنان : كان يدخل في الصباح حوالى الساعة الثامنة فإذا بقهوته الممزوجة بالحليب معدة له في ركن من المائدة ، فيقبل جبين أمه وهى جالسة تنظر إليه وهو يأكل . وكما كان فى بادئ الأمر يضيق بهذه النظرة المظلمة الدامية ، أما الآن فهو لا يعيرها التفاتا . فإذا ما انقضت وجبة الظهر ، وكان يتناولها وحده ، جلس لحظة حياء هذه العاجزة يتصفح جريدة « جريدة الصغيرة » ويحتال ، لتغطية وجهه بالجريدة المنبسطة بينه وبين هذه النظرة الجامدة الجائحة . ولقد كانت ماري دى لادوس تقول : « إنها تأكله بعينيها » فإذا ما انصرف بعد قراءة الجريدة نظرت طويلا إلى هذا الباب بعد أن يغلقه ، ودلكت بيدها السليمة صفحات ثوبها حتى أصبح له بريق من شدة البلى . فإذا حانت وجبة المساء عبر الحبيب طريقه إلى المطبخ وبدأت السهرة . وما كان يستر وجهه

فى المساء : إما لأنه كان يحس بنصف حماية من الظلام ، وإما لأنه رضى أخيراً أن يعبد ، والعبادة على حافة القبر . وما كانت تعيش طيلة نهارها إلا لتشبع بصرها فى بدء المساء ، قبل أن يعمها الظلام . وحوالى الساعة الثالثة ، حلت لحظة إنقاذ المرأة الشهيدة . آه ! ما أمر هذا الوجه المنبسط وهو يتدفق حبا لم تُثب عليه ، بل ظفرت بمحظها منه امرأة أخرى ! ومع هذا فقد دفع فيلستيه كازيناى شعور خفى بأن من الخير أن تتعذب من أجل ولدها . وما كانت تدري أن تقاسى عذاب الموت .

وقضت نحبها ، فى نهاية الخريف . ويحكى سكان بلدة لانجون أنهم اضطروا أن يمسكوا بفرنان كازيناى ؛ لأنه انحنى على الحفرة انحناء من يريد أن يلقي بنفسه فيها ، ولم يفهم أحد أنه كان يحاول فقط أن يامح بين أشباح القبر فى الظلام شكل التابوت الذى غدت فيه ماتيلد غباراً ورماداً .



خطر لفرنان ، قبل كل شيء ، أن كاتباً شرعياً سخيلاً
كان وحده يصرفه عن ماتيلد . كيف يستطيع فرنان أن
يجمع شتات فكره ، وأن يتعمق حتى يبلغ ذكريات زاهرة
حيث تسهر روح محبة إلى قلبه ، طالما يحضر ، في
كل ساعة من النهار ، رجل قصير بطين ، فيملي إرادته
وينشر أوراقه ويسأل التوقيع ؟ ذلك أن نوما كازيناف ،
والد فرنان ، قد حرم ابنه الأكبر من الإرث لصالح
زوجته . وما كان لفرنان أن يرفض هذه الوصية غير

الشرعية ، فقد كان لا يزال القانون المدني في بعض الأسر العريقة ، خاضعاً لإرادة الآباء القوية . فلما بلغ فرنان سن الرشد ، آثر أن يعتمد على أمه في القيام بأعباء هذا العمل ، فقامت به ، بطبيعة الحال ، عن طيب خاطر . ومنذ ذلك الحين كان فرنان في كل شهر يأخذ منها ما يلزمه من النقود ، وظل تحت سلطان أمه . وظل هذا الخضوع ، الذي كان مصدر سخرية من ماتيلد ، إلى أن أصيبت أمه بالشلل قبيل وفاتها .

ثم قدر لفرنان ، أخيراً ، أن يوقع بإمضائه ، فخيل إليه أن ما تحدّثه موارده وأراضيه من جلبة وضوضاء قد قضت على هدوئه العذب وبطالته المقدسة حيث كان ، منذ قليل ، يعيش مع ماتيلد . ثم عرف كيف أن من الميسور أن يكون له حساب جارٍ في المصرف ، وأن تنبت شجرة الصنوبر من تلقاء نفسها ! وفهم أن والدته حينما كانت

تركب العربية الصغيرة ، في عيد جميع القديسين لكي
« تحصى الجواهر » في مناطق الرمال كان دافعها الوحيد
أن تنسم عبير الصنوبر النابتة في مسقط رأسها مرة في
العام ، حين يعتدل الليل والنهار فيهتز قم الصنوبر المظلمة ؟
حتى حقل الكروم سرعان ما تخلصت منه الأرملة . ولم
كان زوجها يحبه ويؤثره على غيره . بينما لم تقبل أن تتخلى
عن شبر من هذه الغابات الموحشة التي وُلدت فيها ونشأت
على أرضها . وإن فرنان ليذكر أيام طفولته ، حين قام
بسفرة طويلة شاقة إلى جده بيلوير ، فعبر بالعربية الصغيرة
منطقة سوتيرن ، تاركا حقول العنب ونهر الجارون السعيد
ووصل إلى طريق الغابة حيث رعاة البقر يقلبون الأرض
بحوافرها . وكانت أمه في ذلك العهد ، تتلثم بلثام أسود
معقود تحت ذقنها . وأخذت مشية العربية ذات العجلتين
تهزه وتلقى برأسه إلى الوراء ، فما كاد يلمح سماء أكتوبر

المضطربة مناسبة بين القمم السوداء المتلاصقة ، وأسراب
الطير تحلق على هيئة مثلث من شاطئ يميل إلى آخر حتى
تطفئ يصبح رعباً . فإذا ما أحدث المساء الغزير منعرجاً
في الطريق ، وتكشف فجأة عن هواء بارد أسرعته أمه
فغطته بمعطفها ، فكانها تبسط عليه جناحاً أسود ، خشية
عليه من البرد . وكذلك كانت إذا اشتكى حرارة القيظ
وضعت في قلق أصبعها بين رقبته وياقة قميصه . وحدث ، في
ذات يوم عاصف ، أن أزعج ذباب البقر حصان العربية ،
فكسر العريش في زمن يرخى فيه الليل سدوله بسرعة .
وانتظر فرنان وأمه على حافة الطريق ، بينما وقف الفلاح
الحوذى يصلح العربية . وتذكر فرنان أنه شعر في هذه الطريق
الخالية التي يغمرها الأصيل بأمان سعيدة ، وبدت بعيداً
عن كثران الرمال العالية ، شجيرات السرخس ترتعش
صفراء محترقة . ودوى صياح الراعي كالوحش ، يجمع

الماعر المتفرقة المختلطة في قطع من الظلمات . . . وكان أكبر لذته أن أمه تصحبه هنالك . . .

نظر فرنان حوله ، فوجد الغرفة التي ماتت فيها ماتيلد ، والإطار المصطف وهي لا تبتسم فيه ، وعصفوراً يتسلق الأغصان ويشدو بصوت من الربيع ، وصباحاً مفعماً بالدخان والشمس . ووجد ألا سبيل إلى مناجاة ماتيلد إلا بالصعود من أعماق حياته إلى أعلى قمة لأقرب لحظة من لحظات الماضي . وحاول أن يحن قلبه ذا كراً كم كانت حياتهما معا قصيرة الأمد . والآن ، ولا فارق في الموت بين السكنة والحماة : فعدوتها القديمة قد لحقت بها في المقبرة الثالثة ، الشمالية ، اللاصقة بالحائط. كلتاهما أصبحت رهينة الفناء . ولا يزال فرنان متضيقاً من أنه قضى جانباً قصيراً من حياته ، من أجل زوجته ، بينما الأم قد بسطت عليه جناحيها الهائلين طوال السنين الغابرة .

وارتدى ثيابه ، وجاس خلال الحديقة ، ونظر خلصة
إلى نافذة المكتب حيث لا عجوز تضايقه ، ولا وجه
يتربص له . ولكن لماذا يحس بقلّة الرغبة في اللحاق
بماتيلد ؟ ألاّنه أمن الرقابة من جانب العجوز ؟ أم أن حب
أمه الهائل ، الملح ، كان قد أحاطه بالسنة من النار ، فما زال
لهيبها يطارده حتى انطوى على نفسه فهرب إلى ماتيلد ؟
ها هي ذى الشعلة قد خمدت نارها — هذا الموقد الذى كان
يُشعل فيه الغضب قد غادر فرنان فجأة ، فتركه ينتفض ،
فى وسط الرماد . هنالك قوم لا يحبّون إلا ليكيدوا
قوما آخرين ، فإن أنين المرأة البغيضة هو الذى يدفعهم
إلى حب امرأة أخرى .

والآن يقف فرنان ، فى ممر الجنوب ، ينسم عبير
الزئبق ، وينصت إلى طنين زنبور ضخم ، ولم يوح إليه

حاجز الحناء بما كان يوحى إليه من قبل . ونادته ماري
دي لادوس للطعام ، فأكل بازلاء طازجة أكثر من
عادته ، وجلس بمفرده في غرفة المكتب ، ولا يزال فيها
سريراً المشلولة قائماً ، فأحس ، في فترة الهضم ، بلذّة عابرة ،
وفي ثوانٍ ، تذكر « مزاجه » ، فعقد النية على إرسال برقية
إلى شارع هوجوري ، وجلس إلى مكتبه ، وأخذ يستذكر
صيغة البرقية ، وكم كان يكتبها أيام أمه ، ويده ترتجف
غيظاً ، فقد كانت خواطره لا تواتيه إلا بعد مشادة معها ،
وكم كانت تسخر منه ، وتصيح به : « سترجع إلىّ في
حالة مرضية ، وستنضج في خلال ثلاثة أيام ! » وما كان
يجعل أنها تكاد تموت من القلق لبعاده عنها ، وأنها لا تذوق
للعيش طعماً إلا بعودته إليها . ولولا ما كان يستولى عليه
من ضيق لما فكر في مغادرتها . وكم كانت عودته مخجلة
له ، عذبة لديها ، فيؤوب إلى الحياة في جو مفعم بسرور

مؤنب ، وسخرية رقيقة ، ورعاية فائقة ! وكانت فكرة العودة من بوردو إلى هذا المنزل الخالي ، تخيفه فقد كان يخشى هذا الشيخ الفاني المتلاف ، أن يرجع دون أن يلمح أمه لدى نزوله من القطار متكئة على الشرفة المطلة على المحطة ويدها ترتفع إلى حاجبها تحاول أن تتعرف عليه بين قطيع المسافرين . تذكر فرنان هذا كله فزق البرقية ولم يعد يفعل شيئاً ، فلقد شاءت أمه ألا يعيش إلا بها ، كأنه متعلق بأنفاسها . ولو لم تتحمل مناقشة ما ، في عمل ، أو هوى ، أو أمل ، لكان حسبها غمراً أن تكسب هذه النتيجة وهي في أعماق القبور . فما إن انطفأت شمس الأم حتى دارت به الأرض الفضاء ، كرقعة من الأرض فقدت مدارها .

سار المتزهون ، على ندرتهم ، في الطريق الممتد على
 طول الخط الحديدي بوردو — ست ووقفوا يراقبون
 من خلال الأشجار ، ذلك المنزل الضخم الصامت الذي
 يقال عنه إن أحدا لم يعبر عتبة حتى الآن . ورأوا في
 خلال بضعة أسابيع تالية ، أن ضلف النافذة تنفتح . فقد
 كان فرنان كازيناث يمضى من خلفها ليالى ساهرة ،
 مستلقيا على فراش ماتيلد . ولوحظ في ذات صباح ، من
 منتصف الصيف أن الضلف ظلت مغلقة . وخذت كل

حياة في « جناح العدو » كما كانت تسميه فيلستيه ، حتى إذا حل يوم الأحد تنبهت نوافذ فيلستيه كازيناث ، وبعد فترة قصيرة تنبهت أيضا نوافذ الغرفة الأخرى حيث يتعلل فيها فرنان بالنوم على سرير طفولته ، ولم يكن يذوق طعم الرقاد في هذه الغرفة أو في تلك . حتى إذا حل الخريف وجاء وقت الاحتفال بعيد القديس ميخائيل فأقبلت العجريات لابسات أسما لا حمراء ، وعسكرن إلى جانب سور الحديقة ، وأوقدن نارا ملأت ريحها الكريهة كل مكان — أوصدت إلى الأبد ، غرقتا فيلستيه وفرنان . وكما هو الحال في أي جسم ضخم يوشك على نهايته ، كذلك كان حال المنزل ، فالتجأت الحياة إلى أطرافه وتركزت في المطبخ ! واستعمل فرنان سرير المشاولة وكان لا يزال قائما في الدور الأرضي ، فإذا تنفس الصبح هب يغسل وجهه غسلا عابرا ، ثم يدخل المطبخ فيجد لدى ركن المدخنة كرسيا

كانت أمه تجلس عليه ، تلتهمه بعينيهما وهى فى حشجة الموت .
تراكم التراب فى الدور الأعلى ، فى غرفة ماتيلد ،
واغبر زجاج الإطار المصطف حيث كانت تتوارى خلفه
طلعة نضيرة لا تبتسم ، وزهور الزنبق التى جفت من
شهور ولا زالت فى الأصص التى نسقها فيها فرنان فيما
مضى بحرارة وإيمان . وضجّت ماري دى لادوس من تراكم
العمل الملقى على عاتقها ، وأظهرت أنها عاجزة عن القيام به كله .
صارت ماري دى لادوس كما كانت فيما مضى ، خادمة
خاضعة ترتعد فرائصها كلما وجهت بقول لأنها كانت ترى
الآن بوضوح أن الصنم القديم قد تهدم ونزل من عليائه
مساماً لها . ألح عليها فرنان أن تنام فى الغرفة السوداء الملحقة
بالمكتب كأىام أن كانت تسهر فيها على سيدتها ، حتى
يستطيع أن يناديها فى أثناء الليل بصوته الباكي المتهدج .
إنها ملاذه الأخير ، فهى التى عرفت أجداده القدماء الذين

أحبوا طعامها اللذيذ المطهى حسب تركيبات قديمة منسية ،
والذى ينشر رائحته حتى أبعد غرف المنزل ، وهى التى أفنت
يديها ثلاثة أجيال من آل بيلاير فى شئون الغسيل .
ولكن القدر قد طارد فرنان كازيناف ، وطرده ، حتى
فى هذا الملاذ الأخير .

حلت فترة قطاف الكروم ، وحل معها إلى المطبخ
البط والحمام الوحشى وريمون حفيد مارى ؛ إذ كان أهله
يقطفون العنب فى قرية إيكيم عند السيد الماركيز .
وأصبح ريمون ماجناً ، حسن الوجه ، كثير الحركة ،
أشرف الأذنين ، محرق الصدر ، كوعاء من الفخار ،
عارى القدمين ، نظيفهما . إذا مشى فرقعتا على البلاط
البالى ، له ضحكة براء تُفْرِخ فى عينين كحبات عنقود
من العنب الأصهب . خشيت مارى فى بادئ الأمر أن

يكون الطفل مصدر تعب لسيدّها لآنه دائم الحركة ،
كثير الدخول والخروج ، يفتح الباب ثم يدعه ينصفق .
ولكن فرنان كان يمنعها من تأنيبه ، فقد كان يرنو إلى
هذا الشحرور الصغير بمثل تلك النظرة الجائحة التي
كانت أمه ترمقه بها وهى صامتة ، فى العام الماضى .
وواتته الرغبة فى أن يحدثه ، ولكن ما الذى يجب أن
يقال لطفل ؟ أخرج من كيسه علبة مستديرة فيها قطعة
من الحلواء كان يحتفظ بها ضد السعال وانتظر حتى مر
ريمون بجانبه ، فقدم له الطعم قائلاً : « فستقة ؟ » فوقف
الصبى لاهثاً ، أحمر الوجه ، وما إن مد يده ليتناولها
حتى قبض عليه من ذراعه يريد أن يستبقيه ولكن
الطفل حاول أن يطير ، بشعره الأطلس النافش كالريش ،
وهو يلفت رأسه ويشيح بوجهه ويدبذب برجليه ...
فلما أيقنت من أن وجود حفيدها لا يسوء إلى

سيدها حاولت ماري أن تستبقيه طيلة الشتاء . ولم
يكتشف فرنان خطورة بقاءه إلا فيما بعد . ولو كانت
فيلستيه لما أضاعت وقتها في بحث مثل هذا الطلب . فقد
كانت تعلم أن أمثال هذه الطبقة « لا يُرتبط معها بشيء »
وما كانت تتردد وهي تطرد ماري إلى الفرن وتصفها بالوقاحة
أن تقول لابنها العزيز : « لولا ملكتنى ! الحسن حظك
أننى على قيد الحياة ! لولاي لوقعت في الشرك ، فإنك
عاجز لا ترى أبعد من أنفك ، ومالديك من قوة الدفاع
أكثر مما لدى الطفل . ولولا سهري على المنزل ، وعليك
لمسك الضر من كل جانب . » أما الآن فهي ليست
بجانبه ، وما كان فرنان يقدر خطورة بقاء هذا الطفل ،
وعلى كل ، فالذى حدث أن ماري قد رجت أهل ريمون
أن يتركوه عند السيد كازيناف ، فتظاهروا بالموافقة
شفقة على سيدها .

ولم يلبث فرنان أن ضاق ذرعاً بهذا الماغن النهم ،
القذر ، وأصبحت ماري لا تغنى بسيدها الهادىء عنايتها
بدولاب الأطعمة أو ساعة الحائط . ولاحظ أن ماري
دى لا دوس قد تراخت فى خدمتها وتهافتت فى شئون
منزله ، وأهملت ذلك الصنم الهرم المخيف ، وانصرفت
إلى الصبي المشرق الذى كان من دمها . ولم يعد من اليسير
أن تعد الحساء إلا بعد جلوسه إلى المائدة ، فقد كانت
دبدبة قبقابه على سلم مدخل البيت مؤذنة ببدء ساعة
الأكل . وحدث أن أصيب ريمون فى ديسمبر بالتهاب
خفيف فى حلقه ، فدفعها ذلك إلى مغادرة الغرفة التى
كانت تنام فيها قريباً من سيدها . ومما زاد الحالة سوءاً
أن أقامت أم الطفل فى المنزل بحجة علاجه . وكم كانت
ماري دى لا دوس تخشى هذه المرأة . هى امرأة من
منطقة اللاند ، هتماء سوداء ، تذكر عيناها ومنقارها

بشكل دجاجة نهمة . أما أبوه ، وكان يعمل في مزرعة قريبة ثم يعود في المساء إلى منزل فرنان أيضاً ، فهو من منطقة الجارون ، خل قوى ، برز سرواله الأكرش المحوصل ، من بنطلونه الأزرق ، وعجز الحزام عن حبك جوانبه — إنه هرقل الذي حطمته وأُعييت قلبه سوتيرن القاتلة . وثقه الطفل ومع ذلك فكان الزوجان يتخذان المطبخ في كل مساء ، مقرأً لتناول الطعام ، حتى اضطر فرنان أن يأكل في حجرة الطعام وهي قارسة البرد لا يجدى فيها إيقاد النار ولا يخفف من رطوبتها . وسمع في خلال وجبته القصيرة ضحكاتٍ فظةً ، وأصواتاً كعواء الكلاب ، فإذا ما فتحت ماري الباب للقيام بخدمته ، التزما الصمت ، فلا يسمع إلا أتممة لهجتهم المحلية ، وصيلل الملاعق والآنية ، فإذا أُوْصِدَ الباب عادا إلى الضحك والعواء .

لم يدر أحد منهما أن فرنان وهو في غرفته القارسة
 البرد ، التي كان يبغض ألواحها الخشبية الباهتة ،
 الزائفة ، لم يكن وحيداً . فقد كان كلما رفع بصره عن
 وعاءه بدا له مكان أمه الذي جلست فيه زهاء نصف قرن ،
 مهيبة عزيزة الجانب . وكم كانت ، وهي في جلال الموت ،
 تثير الهيبة والعزة ، بوجهها المتأله العبوس ، في قلب ولدها
 الضعيف . ماذا ! ألم يئن له أن يطرد هذه البراغيث من
 المنزل ؟ وتذكر فرنان تلك الإلهة الرهيبة التي عرفت ،
 بتقطيب حاجبيها أن تسيّر طوع أمرها الناس ، الوسطاء ،
 الأجراء والخدم جميعاً . ومد إلى « الوالدة » العظيمة يده
 متوسلاً ، منهزماً كإنياس الهرم وهو على وشك الهلاك .
 لقد أقر بأنه عبد تلك المرأة الجبارة ، أمه العجيبة !
 كيف تجاسرت مدرسة صغيرة ساخرة على أن تقف في
 طريقها ؟ يا ماتيلد إن شبحك جاثم على هذه المائدة بعيداً

عن النار، في وجه تيار الهواء، كأنك على قيد الحياة
لم تتقدسى بعد بالموت. هكذا تذكر فرنان ذلك الظهر
المحدوب، والجسد الطليح، والعينين الصفراوين
اللتين تشبهان عيني قطة مطاردة.

اهتز المنزل بمرور القطار السريع وحال صياح في
المطبخ دون سماع هديره فوق نهر الجارون. ومس فرنان
طائف من نزوات أمه — تلك النزوات التي جعلت العجوز
الضخمة الوحشية تدبذب برجليها. فما إن انتفض قائماً
وتقدم نحو الباب حتى ظهرت ماري دي لادوس تحمل
إناء اللبن. فحملت في وجه سيدها، وكانت حاذقة في رصد
علامات العاصفة على هذا الوجه؛ فقالت بصوت مختنق:
— سأذهب لأنبه هذه «المردولة» فإنها تقلق
راحة سيدي.

وعادت إلى المطبخ مذعورة ، وكانت هذه المردولة
تبت فيها الفزع الذى تعود أن يوحيه الصبية إلى عجائز
منطقة اللاند ، فوجدت موضوع النزاع أن زوج المردولة
قد سلب منها ماها القليل الذى اقتصدته تدريجياً ، وأخذ
يتهمها بأنها لا تزال تخفى تقوداً . ولم تمض بضعة ثوان حتى
كان فرنان يسمع صوت ماري العجوز وحدها تتحدث .
ثم نبحت المردولة فجأة باللهجة المنطقة . وليس أدل على
العزلة الشاذة التى يعيش فيها فرنان كازينااف من جهله بهذه
اللهجة . ولما ألصق أذنيه بالباب فهم أن ماري كانت تتحدى
أولادها . ولكن ماذا يطلبون من العجوز ؟ سمع كلمة
« سيدى » تتردد كثيراً فى أحاديثهم ، فمن الجائز أن يكون
هو موضوع المشادة . ولما كان فرنان ردى السمع ترك
غرفة الطعام ومر بالدهليز ، فأيقظ وقع خطاه صدى غرفة
فسيحة ، تنتهى بأبواب خالية من الضلف ، وتقسم رحبة

طويلة إلى رقتين مضيئتين في ليلة قارسة البرد . ثم أعاده
الممشى إلى باب هذا المطبخ الواقع أمام السلم الكبير .
فسمع هذه المرة وهو يرتعد في الظلام كلمة « الماجن »
علاوة على كلمة « سيدى » التى كانت ترددها وسمع مارى
تصيح بلغة واضحة : « ولكنى أخبركم أنه لم يسأل مرة
واحدة عن أخبار هذا الماجن ، وأنا أدري بسيدى ،
فهو لا يتعب نفسه فى سبيل الماجن ! كان الصبي
سلوته بضعة أيام ، أما الآن فإنه لم يعد يقبله ، وعلى كل
فلا يمكن أن يفرض عليه . . . » فقاطعتها المرذولة عاوية :
« نعم ! إن فى إمكانك أن تفرضى عليه ما تريد .
لن يستطيع هذا الشيخ الفانى أن يعيش بدونك ،
ولكنك لا تحبين أسرته . . . » واستأنفتا نباحهما
بلهجة قروية .

نفض فرنان قامته العالية ، واحس بأمه تحثه إلى الامام ،

لأنها كانت في صميم نفسه ، كانت تملكه . ماذا ينتظر ؟
 لم لا يدفع باب الغرفة دون استئذان ، ويحطم هذه المائدة
 بضربة من قدميه ؟ ولكن قدميه تخونانه وقلبه تختل
 ضرباته . « فالنوم قبل كل شيء ... » وارتقى على صندوق
 الخشب المغلق بعض الإغلاق ، ففرق الغطاء وقاطع الصوت
 المدوى الصادر من وراء الباب ، فهض وذهب إلى المكتب
 حيث كانت النار قد خمدت . وأخيراً ، بعد أن استلقى
 وأطفأ شمعته ، لاحظ أن ماري أهملت إغلاق الضلف ، فرأى
 من سريره صفاء الليل ، وقد ظل الجو ممطراً طيلة النهار
 فباتت الأشجار تنقط في هدوء رائع ، فلم يكن في الكون
 إلا صوت هذه الدموع الساكنة . فسرى إليه هدوء
 وروحانية ، كما أنه أحس بأن من وراء حياته القاسية ، من
 وراء جفافه الروحي ، سلطة من الحب والسكون ، حيث
 تستحيل أمه امرأة تختلف عن التي استولت عليه

كالشيطانة ، وحيث تشخص إليه ماتيلد بوجه منبسط
هادئ إلى الأبد — ابتسامة قديسة .

وما إن طلع النهار ، وأيقظه انهمار المطر ، وقلب بصره
في هذا الصباح الحالك ، صباح الشتاء — حتى ثار بغضه ،
ونأى عن ذهنه ما كان غمره من إحساس الليل الجميل
بتلك السعادة المجهولة ، وتصاعدت فيه بواعث بغضائه
مثل مد البحر على هذا الصباح الكئيب . فطوى في
ملأته جسمه الفاني المتألم ، وخيل إليه أن النهار أمام
عينيه ، كطريق رملية قفرة بين أشجار الصنوبر المتقدمة ،
فأغمض عينيه ليتغلب على الزمن ويقفو بلا شعور أثر
هذا الغذاء الروحي . ولكن ماري دى لادوس أوقدت
النار ، ووضعت فوق وسادته القهوة الساخنة الممزوجة
بالبن ، وهو يتظاهر بالنوم ووجهه لصق الحائط .

بعد الغداء ، جلس فرنان في المطبخ أمام النار . وما كان
أشد فزعاً ، وهو متجمع في مقعده ، في جو ديسمبر القاتم ،
حين تذكر أمه وهي في لحظة الموت ! دخلت ماري
دي لادوس وهي تعين حفيدها الضعيف على المشي ، وقد
كان يومئذ ينهض من مرضه للمرة الأولى ، ونظرت في
السيد تحاول أن تكشف عن قلبه ، ولكنه لم يرفع بصره
عن اللهب ، ودفعت إليه الماجن وهي تقول له :
— ماذا تقول لسيدى ؟

فلم يلتفت إليها فرنان ، فأعادت عليه :
— لقد تعذب المسكين ، وأصبح غاية في النحافة
وابتلعت عيناه وجهه .

وتحسست ذراع الولد ، وأخذ السيد الملقاط (الماشة)
ثم وضعه لأن يديه كانتا ترتعشان ، ثم قذف الصبي
الماجن بنظرة قارسة . وتذكر كلمتين مأوفتين بلهجة
القرويين ، رغم جهله بها ، كان يحفظهما عن جده يلوير
وأمه فيلستيه حين كانا يريدان أن يبعدا شخصاً أو حيواناً
من أمامهما :

— إذهب من هنا .

وقام ينتفض ، كما كانت تفعل أمه — إلا أن أمه
كانت أصلب عوداً وأشد هيبه . فتراجعت ماري بخضوع
رهيب ، وأخذت معها الصبي الماجن الأشعث وهو يقفز
كشعرور سقيم .

ولبت فرنان حتى المساء أمام مدخنة غرفة المكتب .
وفي الساعة الرابعة أحضرت ماري المصباح ، وأغلقت
الضلف ، وبقي وحيداً حتى دله الصياح على أن أم ريمون
في المطبخ — حينئذ جلس في الدهليز المظلم على صندوق
الخشب كما فعل أمس ولم يتحرك ، وسمع ماري تقول في
أسلوب الرجاء : « لا . لا سوف يسبب له ذلك ضربة
دائمة . . . » ثم طفت لهجة المرذولة على صوت الأم .
وصاحت بأنها ستقوم بشخصها لوضع آنية الطعام على
المائدة ، ولم يفهم فرنان معنى هذا التهديد . وأحس بالبرد
فعاد إلى غرفة مكتبه ، وظل شاخصاً إلى النار لا يتحرك .
وعند الساعة السابعة حضرت ماري دي لادوس لتخبر
سيدها أن كل شيء قد أعد . فأخذت المصباح ورفعته
كما كانت تفعل كل مساء ، وانسحبت من أمام سيدها
وهو يبصر في ضوءه وجهها الهرم المتهدم . وقام فاخترق

المطبخ ودفع باب غرفة الطعام ونظر ففهم كل شيء . كانت
أمام آنية طعامه آنية أخرى موضوعة على الغطاء
النظيف . ولما كانت المائدة جد مرتفعة على الصبي الماجن ،
فقد وضعت المرذولة كوماً من الكتب على الكرسي حتى
يتمكن ريمون في جلسة مريحة من أن يدرك الحساء
على المائدة .

كان الطفل يبكي من خلف الباب ، ولم يجروا على الدخول
بالرغم من أوامر أمه التي بدأت ترفع صوتها . وأحس
فرنان كازيناث أن موجة من الغضب تنبعث في نفسه
وتشتد ، وتسربت روح أمه في نفسه ، وغزته ،
واستولت عليه ، وتناول قدحاً من زبيب فشربه دفعة
واحدة ، ثم ضرب بيده فتحطمت على البلاط آنية الطعام
المخصصة للولد ، وعم المطبخ سكون رهيب ، ودخل
السيد فرأى المرذولة في مقدمة الغرفة ذات عيني

كعيون الطير ، ومن خلفها ماري دي لادوس ترفع يديها
المعقودتين . وتذكر مرة أخرى اللهجة الريفية التي كانت
تستعملها أمه عند ما كانت تود أن تطرد من أمامها إنساناً
أو حيواناً فقال :

— أخرجوا من هنا !

فتقدمت المردولة واحتجت بأن سيدها هو الذي أراد
أن يستبق الصبي الماجن ، وبذلك قد ضيّع عليه فرصة طيبة ،
وسيدها كان معروفاً دائماً بعنايته به وحرصه على بقائه ...
فتعلق به الصبي وتعوده ... وسكتت وهي تلتفّض ،
والسيد صامت يحدجها بنظرة قارسة ، ثم أعاد عليها قوله :

— أخرجوا من هنا !

فثارت المردولة وصاحت بأنهم لن يغادروا المنزل إلا
بصحبة المرأة العجوز . أما ماري دي لادوس فوقفت
صامته ، وأشاحت بوجهها بعيداً وهي تخفيه بيديها ذات

الأردة المنتفخة . وانفتح باب المخزن المجاور ، وبرز الصبي
بوجه كوجه الثعلب الصغير المصيد في جحره ، وأيقنت
المردولة أنها تغلبت على خصمها بهذا التهديد ، وابتسمت
بسمه الفوز ، فكشفت عن لثة صلبة وثغر قائم . فجعل فرنان
يتمزق من الغضب ويستسلم إلى شيطان أمه . وبحث
أصابعه بحركة مرتعشة عَجَلِي ، في حافظة نقوده ، عن ورقة
من فئة مائة فرنك وقذفها إلى ماري دي لادوس فالتقطتها
بنتها ، ثم فتح الباب ، وقال للخادمة بصوت هادئ :
— غداً تعودين لتأخذي حقيبتك .

فنظرت إليه ، وتذكرت سادتها الموتي حين كانوا يطردها
ووقفت لا تنصرف ، فأعاد عليها الكلمة بصوت يلوير :
— أخرجي من هنا !

وكان شامخ الرأس ، منتفخ الرقبة ، مُودِجاً من أمه
وهي نابضة بالحياة .

سمع قرنان كازيناف وقع قباقيبهم في الشارع على طول
خط بوردو — ست ، فلا قدحه ، ثم أفرغه وترك الغرفة .
وهدر القطار الأخير على النهر ، ولم يرتجف المنزل . ومشت
سحب رقيقة تخفى تحتها قرا كان يضيئ — على خفائه —
نوراً على الكون . ووقف قرنان كازيناف ، بلامصباح ،
في وسط الدهليز يرى هيئته في المرأة القريبة من الباب .
وساد حوله سكون أعمق من سكون الأمسيات الغابرة .
وهو لا يذكر أن ماري دي لادوس قد أقلقته أنفاسها

حين كانت تسهر سهراتها الماضية ، بينما كانت أنفاس نائم واحد ، في حجرة نائية ، تعكر من صفو المنزل ، وموجة ضئيلة من الحرارة الإنسانية تسبب خفقان القلوب . إذن لقد عرف فرنان لذة السكون للمرة الأولى . فكان ينصت إلى المطر — كما كان في اليوم السابق — وهو يتساقط من الأغصان ، وليس من شيء حول المنزل الهامد إلا هذه الدموع الناعمة الهادئة ، التي لعلها جعلته يحس بهذه اللحظة ، لحظة الهدوء القريب من عالم الحب والسكون الذي تعيش فيه أمه الحقيقية — أما أمه التي أهتمته أن يطرد خادمة عجوزا مطيعة — فهي امرأة أخرى لا تزال نابضة بالحياة ، في مكان آخر ، يستمد منها ، في هذا المساء هدوءاً من كل غضب ، وعزوفاً عن كل ضيق ، وعزلة سحرية . إنه يعتقد أن هذا كله قد صدر عنها ، ولم يدرك أنه قد شرب نبيذاً ، وأن أقل سكرة كافية للإرشاد إلى

الحياة الأبدية . وأخيراً صحا من هذا الدھول على قشعريرة
البرد ، واصطكاك أسنانه التي تحكى ما فعلته ماتيلد في
ساعة الاحتضار . حينئذ سار في الممشى المؤدى إلى «جناح
العدوة» ، وتنقل من غرفة إلى أخرى وهو ينتفض ، حتى
بلغ غرفة أضاءت بنور القمر النافذ من خلال الضلف ،
وقد ألقى على الإطار المصطف قبساً منه ، ورسم على
الحائط ظلاً أنيقاً لزنبقة ذابلة . وفي أعلى السلم ، انفتح
باب المخزن ودخل فرنان . وكان هذا الباب ، فوق الردهة ،
يصل بين جناحين ، ووجد كوة تجمع أضواء الليل الصافية
كما يجتمع الماء ، ثم تفرقه على صندوق مزخرف بزهور
الخزامى المرسومة . ومشى فرنان يتعثر في أشياء ممتة حتى
فتح باب غرفة صغيرة ، كانت ماري دى لادوس تنام فيها
وبل أن تقوم بالسهر على سيدتها ؛ وفي هذه الغرفة ، كانت
ماري تواظب كل صباح على أن تعمل زينتها ، وفيها

وضعت كل ما تملكه في الوجود في حقيبة من الخشب
الأسود ، وفيها برد قارس يبعث رائحة الصابون ، وثياب
من يدأبون عادة على العمل لغيرهم من الناس . وفيها كوة
أضيّق من كوة المخزن ، تجمع صفاء الليل على تمثال من الجص
للعدراء وهي تبسط يديها . وتركت على سريرها ، في ظلام
الليل ، صليبا المنقوش عليه جسد المسيح ، هذا السرير المغطى
بملاء عتيقة مصورة ، وهي القطعة الفذة والثروة الوحيدة
لهذه الغرفة . وكانت ماري دى لادوس كلما قيل لها إن
القطعة غالية القيمة ، طرحتها جانبا . وعلى هذه الملاء جلس
فرنان ، وانهمرت دموعه وقد طأطأ رأسه ، وكوعه مرتفق
على ركبتيه ، ووجهه بين يديه ، والبرد يُثلج الدمع على
خديه ، وجسمه يقشعر خوفاً وفرقا . وأوجس خيفة من
أن يموت وحيدا في الغرفة ، فخرج من المخزن يترنح ، وتشبث
بسياج السلم حتى بلغ غرفته واستلقى على فراشه .

ولم يذق فرنان طعم النوم، وشعر بثقل لا حد له على صدره
وأنامله . وتراءى له ، في حلم ، أن شخصاً يسير في الحديقة .
ولكن بليو لم يكذب يشتد نباحه حتى هدأ فجأة . وخطر لفرنان
أنه نسي أن يغلق الباب بالمزلاج ، فقد سمع الباب الكبير
ينفتح بدفع خفيف ، ولكن لم يتطرق إليه خوف ما ، وإذا
بوقع خطوات من جهة المطبخ ، تتباعد شيئاً فشيئاً ، وضوء
ينفذ إلى أرض غرفته . فأغلق عينيه ثم فتحها ، فإذا بمارى
دى لادوس تمسك بمصباح فتلقى نوراً على وجه المندراء
السمراء . ولكنها لم تتقدم خطوة ، وانتظرت حتى يناديها :

— يا مارى !

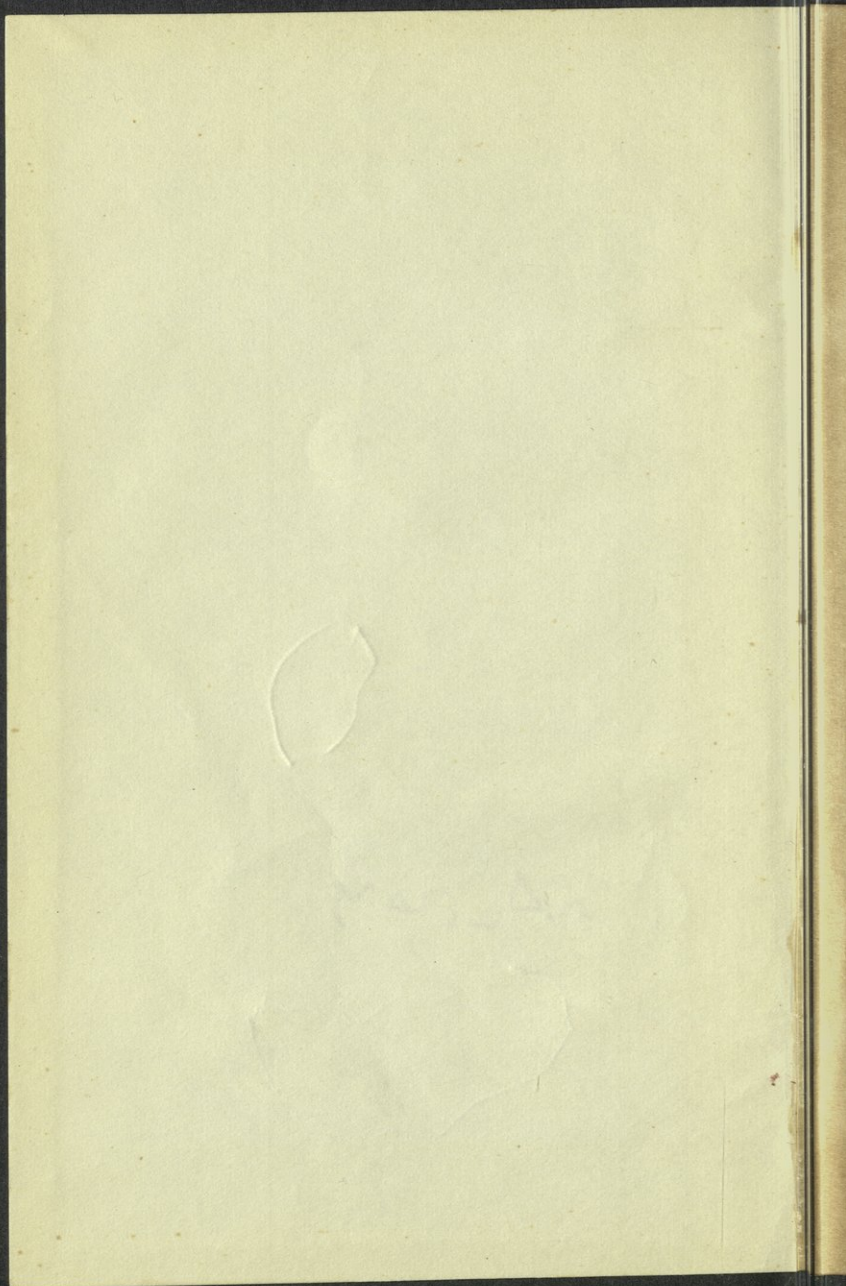
حينئذ أتت إليه بعد أن وضعت مصباحها ، وأحس
بيدها البالية تمر على جبهته .

جوهانيه . سان سامفوريان

في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٣

ETB
AuctM

طبعة الثانية، مصرى، دار الكتب





MAZAM



عابدين، عبد المجيد
والدة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032113

American University of Beirut



General Library

